ALI SHARIATI

الآثار الكاملة (٦)

علي شريعتي







أبي.. أمي
نحن متهمون

دار الأمير

أبي.. أمي

نحـن متهمـون


بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة الآثار الكاملة - ١٢ -

أبي.. أمي

نحن متهمون

الشهيد الدكتور علي شريعتي

ترجمة ودراسة

د. إبراهيم دسوقي شتا

دار الأمير

إسم الكتـاب : أبي.. أمي نحن متهمون

إسم المؤلـف : د. علي شريعتي

إسم المترجم : د. إبراهيم دسوقي شتا

تنضيـد وإخـراج : زهرين

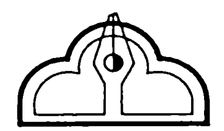
تصميم الغلاف : بشيـر محمد

الترقيـم الدولي : ISBN 978-9953-494-07-4

الطبعة الأولى : ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٣ م

الطبعة الثانية : ١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م
(بعد تدمير الدار خلال حرب تموز ٢٠٠٦ م)

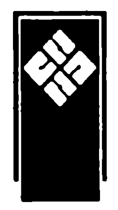
الناشـــر : دار الأمير للثقافة والعلوم ش.م.م



دار الأمير للثقافة والعلوم
مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر - بيروت - لبنان

تلفاكس: 49 64 27 1 961+
ص.ب : 113/5551 الحمرا - بيروت - لبنان

Website: //http:/www.daralameer.com
E-mail: daralameer@daralameer.com



مؤسسة نشر آثار
الدكتور علي شريعتي

تلفاكس: 2232729 21 98+
ص.ب: 6516-19395 طهران
www.shariati.com

وتستمر دار الأمير ...

إذا كانت مسؤولية المثقف تجاه أمته وتحديات لحظتها التاريخية هي الهم والرسالة التي حملها علي شريعتي، فإن نشر فكر الوعي الحضاري بدوره مسؤولية، إذ كيف يصل هذا الفكر للناس دون ناشر مسؤول؛ يعطيه العناية ويكفل أن يظل هذا الزاد الثقافي حاضراً في الوعي؛ متاحاً للأجيال لتنهل منه في صياغتها لرؤى التجديد والنهضة وتستثمره في حركة التغيير وصناعة المستقبل.

وقد وعت دار الأمير هذه المسؤولية منذ تأسيسها عام ١٩٩١م، وحملتها بأمانة، وتحملت تبعاتها المادية والمعنوية في مواجهة حسابات السوق وفكر الجمود، ورغم الدمار الكُلّي الذي لحق بالدار في حرب تموز ٢٠٠٦م، والذي كان أول ضحاياها كتب علي شريعتي التي أحرقتها صواريخ الهمجية الصهيونية؛ حين دكّت مقرّ دار الأمير في بيروت ومعرض الدار في بنت جبيل، فإن إرادة البقاء وعزيمة الإنتصار بقيت متوهجة، وها هي دار الأمير تستأنف دورها ونضالها بعد أشهرٍ معدودةٍ من العدوان، وتقدم من جديد فكر شريعتي في إخراج متميز، وتنهض من بين الركام مستعيدة دورها المسؤول في نشر ثقافة العودة إلى الذات، والنهضة، والمقاومة في مسيرة الفلاح التي شعارها: **إلهي علمني كيف أحيا..، أمَّا كيف أموت، فإني سأعرفه**. والحمد لله الذي نصر عبده.

محمد حسين بزي

مقدمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا الكتاب الذي بين يديك عزيزي القارىء لمؤلفه الدكتور علي شريعتي، هو الترجمة العربية الأولى، لرسالته الشهيرة «**أبي أُمي نحن متهمون**»، وهي عبارة عن محاضرة طويلة ألقاها شريعتي بتاريخ ٢٦/ ٨/ ١٩٧٢م على طلابه وجمهوره في مدينة مشهد الإيرانية، وبعدها طبعت مستقلةً، إلا أن السلطة آنذاك قامت بمصادرتها من المكتبات، بعد أن كانت بعض النسخ قد تسرّبت لخارج إيران، فقام طلابه بإعادة نشرها في كلٍّ من أوروبا وكندا وأمريكا، وترجمت إلى عدة لغات منها اللغة الإنكليزية.

في العام ١٩٩٠م قام المرحوم الدكتور إبراهيم الدسوقي شتا بترجمة هذه الرسالة، ليضيف رائعة أخرى من روائع شريعتي للمكتبة العربية، ونحن إذ ننشر هذا الكتاب ضمن سلسلة الآثار الكاملة للدكتور علي شريعتي، والمتفق عليها قانونياً، بموجب عقد موقع مع الدكتورة بوران شريعتي رضوي أرملة الدكتور شريعتي، التي أعطت فيه «**دار الأمير**» حقاً حصرياً بترجمة آثار الدكتور شريعتي ونشرها باللغة العربية، نوجه عناية القارىء الكريم إلى أن الذي يميّز هذا الكتاب أمران:

الأول: جرأته على تسمية الأمور بأسمائها دون إستعمال «رتوش» هنا، أو الإلتفات «لمقام» هناك، وهو ما كان يدور في أذهان وأفكار الشباب، الذي نفّر من الدين في وقت من الأوقات.

الثاني: إعادة البناء على المستويين الفكري والعملي، وذلك من خلال فضح «الخرافات» وتنقية «الموروث» واستنهاض الهمم وإذكاء العقول، وتعمير القلوب بنور الإسلام الصافي، وإثبات أنه الوحيد القادر على إسعاد الناس والسير بهم نحو الخلاص من الظلم والظلام في آن.

من هنا اضطر شريعتي أن يقاتل على جبهتين:

الجبهة الأولى: الطبقة التي فتحت الدين دكاناً للإرتزاق، وضحّت بالحقيقة من أجل المصلحة[1]، واعتلت منابره، لتبثّ الخرافة والتجهيل والتسطيح من جهة، وتُشَرْعِن النظام القائم يومها من جهة أخرى.

الجبهة الثانية: السلطة الفاسدة التي طالما أحسنت الإستفادة مادياً ومعنوياً من الجبهة الأولى ـ عن علم أو جهل ـ لا فرق من الناحية العملية.

بوجه هؤلاء جميعاً صرخ شريعتي بـ: «**لا**». . مدوّية. . كان لها الفعل الثوري العارم، والنبض الذي لا ينضب، لأنها استقرّت في عقول، ونفوس، وهمّة الشباب المتعطّش لمثل هذه الـ: «**لا**»، في زمن كانت «**النّعم**» هي اللغة السائدة.

(١) **(فليعلم هؤلاء الجلادون أني لن أداهنهم، ولن أضحي بالحقيقة من أجل المصلحة)**، هذه الكلمة أطلقها الدكتور شريعتي من سجنه.

إذاً «**فاللا**» هذه لم تكن وسيلةً من أجل أن يتعرف عليه الآخر، بل كانت تحمل في طيّاتها كل أمجاد الماضي، وآفاق المستقبل، فكانت هذه الـ «**لا**» الحلقة الوسطى التي تستسقي غيثاً أصيلاً صافياً من هناك، لتمطر ماءً نقياً طاهراً هنا، ليكون كل شيء حياً ونابضاً.

وهنا حوّل شريعتي مفهوم «**لا**» من رفض للسلطة الفاسدة إلى «**لا**» ثانية لرفض ما يُدَّعى أنها مفاهيم «دينية»، وقد أفرغوها من أهدافها الباعثة على الحرية والعدل، وأبقوا على هيكلها الذي أشبعوه نحتاً لغايةٍ، وتمزيقاً لغايات في خدمة مصالح دنياهم على حساب حقائق دينهم. وهكذا بدأ علي شريعتي، رافضاً، ليستمر مقاتلاً، وينتهي شهيداً. . ولكن السؤال الفصل لماذا ما زلنا بحاجة لشريعتي بعد ربع قرن من غيابه، ولماذا ما زال الكثيرون يعتبرونه ضرورة فكرية ومعرفية؟

سؤال كبير ليس من السهل الإجابة عليه بهذه العجالة، أخي القارىء. . فهل يكون هذا الكتاب حاملاً في طياته إجابة شافية؟

نترك الإجابة لك معتمدين على نباهتك وذوقك الرفيع، إلى أن نلتقي مع كتاب آخر نسأل العلي القدير أن يوفقنا لنشر أعمال الدكتور شريعتي كاملة، إنه سميع مجيب، عليه توكلنا، وإليه نُنيب.

محمد حسين بزي

بيروت ١٩/٦/٢٠٠٢م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

أولاً ـ ما وراء هذا الكتاب:

١ ـ يقدم هذا الكتاب بعض تفسيرات شريعتي[١] المعاصرة للمذهب الشيعي، تلك التفسيرات التي لعبت دوراً مهماً في ثورة إيران الإسلامية.. هذا ومن الجدير بالذكر أن معظم تعبيرات شريعتي وتفسيراته لم تكن تجد صدى من التعاطف أو الفهم عند الهيئة الدينية آنذاك، وهذا ما أرجعه شريعتي من خلال بعض الرسائل التي بين أيدينا إلى ازدواجية اللغة.. فقد كانت مصطلحاته تثير الهيئة الدينية؛ كانت تركز على الجانب الإنساني من الدين أكثر من تركيزها على الجانب الإلهي، كما كانت محاولة شريعتي الربط بين قضايا المسلمين في الحاضر وقضاياهم في الماضي (قضية فلسطين) ووضعها في إطارها العالمي (الصليبية الجديدة والصهيونية والنفط)، تضع مسؤوليات جديدة على كواهل رجال

(١) لمعلومات أكثر عن حياة شريعتي وبعض الجوانب الأخرى لفكره. انظر: العودة إلى الذات.. ترجمة كاتب هذه السطور.. الزهراء للإعلام العربي سنة ١٩٨٦.

الدين، وبعضهم كان آنذاك يرى أن استرداد «فدك» من أهل السنة أكثر ثورة وأهمية من استرداد فلسطين من أيدي اليهود(١).

لقد كان من قبيل الاكتشاف عند مترجم هذا الكتاب أن يعلم أن ثمة فجوة كانت موجودة بين شريعتي وبين الهيئة الدينية قبل الثورة، وأن هذه الفجوة ألقت بظلالها على العلاقة بين الهيئة الدينية وبين فكر شريعتي بعد الثورة مع أن شريعتي لم يكن موجوداً بشخصه آنذاك.

لقد بدأ الخلاف حول نقاط تثير الضحك أكثر مما تثير الخلاف، وهي من قبيل أنه يقف إلى منصة ولا يقف على منبر.. ويتحدث عن الدِّين في قاعات محاضرات لا في تكايا أو مساجد، ويجلس على كرسي لا على سجادة، ويشرب الماء أثناء إلقاء محاضراته الدينية (وفي الحسينية التي تنتسب إلى الحسين عليه السلام الذي استشهد في كربلاء ظمآناً، وحتى طفله الصغير استشهد ظمآناً)، كما وجه إليه النقد بأنه يسخر من بعض كتب الأدعية التي يقول عنها بعض رجال الدين: إن من قرأها كُتِبَ له ثواب سبعين شهيداً من شهداء بدر(!!)..

كما أنه يكتب بلا حياء على غلاف واحد من كتبه: «مسؤولية

---

(١) يشير شريعتي إلى أن أحد المشايخ قد رفع قضية في محكمة سبزوار يطالب باسترداد واحة فدك التي يرى الشيعة أنها ميراث السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام من الرسول صلى الله عليه وآله ولم يرض الخلفاء بتسليمها لها.. وكان مقدم القضية يطالب بفدك وبتعويض عن استغلالها وزراعتها منذ سنة ١١ للهجرة من تاريخ رفع القضية سنة ١٣٧٩هـ للهجرة، لقد حدث هذا بعد هزيمة يونيو سنة ١٩٦٧ مباشرة.. ولم يسكت شريعتي عن هذا السخف. (علي شريعتي: شيعة ص ٢٧٨ ـ ٢٧٩ طهران).

أن تكون شيعياً» وكأن التشيع تهمة أو جريمة.. وهو عندما زار مصر أدار ظهره لمساجد الأئمة الأطهار.. واتجه إلى الأهرام وهي مقابر الفراعنة.. وإلى مقابر الذين ماتوا في السخرة عند بناء الأهرام.. وأخذ يبكي[١].. كما أنه يسمي رجال الدين الموجودين بالشيعة الصفوية، ويعتبر نفسه شيعياً مختلفاً وعلوياً.. وهو يخاطب الناس بقوله: أخي.. أخي.. بدلاً من أيها المؤمن.. وهو عندما يتحدث عن العقد التي تكونت لديه من الحضارة التي أقامها قومه.. يخاطب عبيد فرعون بأنه واحد منهم.. لكنهم ذهبوا.. بينما بقي هو يعاني من ثلاثي السلطة: الفرعون وقارون وبلعم من باعوراء (الحاكم والرأسمالي ورجل الدين المتصل بالسلطة والعامل عندها)..

وترتفع نغمة هجوم رجال الدين على شريعتي: أنه رجل ضعيف الإيمان.. إيمانه بالولاية ضعيف.. لقد أخذوه إلى فرنسا وأدخلوه مدرسة لتعليم اللغة والبلاغة فحسب.. وضحكوا عليه ببعض الألقاب من أمثال الدكتور والمثقف ثم دسوه لهدم التشيع والتحدث فيما لا يفهمه.. وفيما يفهمه أهل هذا العلم فحسب (نفس الجدلية الموجودة: احتكار الفتيا كهنوت إسلامي).

كان هذا بعض ما ورد في كتاب «دفاع عن الإسلام والهيئة الدينية ضد علي شريعتي خطيب الإرشاد» (يقصد حسينية الإرشاد) الذي ألفه الشيخ محمد علي الأنصاري.. وقد افتتحه بفصل كامل

(١) إشارة إلى رسالة «نعم هكذا كان الأمر يا أخي».

عن سيرة شريعتي وقصة حياته (كما وصفها المشايخ بالطبع) وهو في الواقع مكتوب؛ لقطع أي لسان، وتحطيم أي قلم يهدد مصالحهم ومراكزهم وحيثياتهم في المجتمع (نفس ما سماه محمد حسين النائيني فقيه الحركة الدستورية العظيم بالاستبداد الديني) أما ما يسميه شريعتي بـ«تقوى الخوارج» الذين كانوا مثالاً في التعبد والتهجد وقيام الليل. . لكن برؤية سياسية واجتماعية ووعي متدنٍ إلى درجة تكفير علي. . ثم قتله!!

وإيران هي أرض الإتهام السهل والجاهز. . والتهمة الجاهزة والتي يمكن لغموضها أن يتهم بها أي إنسان هي «البهائية». ولم يكن إذن ببعيد أن تتهم حسينية الإرشاد وكُتابها ودعاتها ومن بينهم شريعتي بالبهائية. . ثم استغلوا التشابه بين اسمه وبين اسم أحد البهائيين المشهورين، ولما لم تفلح هذه التهمة. . اتهم شريعتي بأنه «وهابي» ودسيسة من السعودية!!.

وهكذا فإن عداء شريعتي لكل ما هو قبيح يزري بالإسلام، ويقدم للناس على أنه الإسلام ولكل ما هو دخيل ليس من الإسلام في شيء ويقدم للعالم على أنه الإسلام، وكل ما هو عامي ومقبول لدى العوام على أساس أنه الإسلام، ورغم اعتقاد هؤلاء المشايخ بأنه ليس من الإسلام، بل وربما كان دخيلاً من المسيحية في العصور الوسطى (مثل مراسم التعزية)، لكن الاعتراف بهذا يخل بالحيثية وبالدخل. . فلا مانع من تحويل النظر وغض الطرف ما دام الشيخ، بتعبير شريعتي، يمد اليدين «يداً لتلقي القبل ويداً لتلقّي الأموال» فليشوه الإسلام إذن أمام القاصي والداني.

من هنا فإن شريعتي في كتاباته ينص على التشيع، إنه يقول: الدين، ثم لا يلبث أن يردفه بالمذهب. . وقد كانت هذه النقطة بالذات من أسباب بعض التحفظات بالنسبة لشريعتي عندما أصبح مقروءاً خارج البيئات الشيعية، أنه متهم بأنه يرسم صورة مثالية للتشيع. . ومن ثم فهو يرى المذهب السني خالياً من المثل. . تراه يعتبر مذهب التشيع حقاً في مواجهة باطل، هو المذهب السني؟!. . الجواب: إنه إلى جوار أن شريعتي كان يتعامل مع جمهور بعينه ومع مجتمع بعينه، فإنه يشير في كثير من المواضع أنه يتعامل مع قضايا مشتركة بين السنة والشيعة (ونضيف وكثير من البلايا وكثير من أنواع المعاناة). . وهو يضيف: إن الكثيرين يرون التشيع منحى فقهياً في مواجهة السنة كمنحى فقهي آخر. . لكني أرى أن كلمة التشيع من مرادفات كلمة الإسلام. . وهو ـ أي التشيع ـ يبدأ من التوحيد. . ويبدأ تاريخه من آدم ورسالته ومن إبراهيم مروراً بالأنبياء، ثم الحسين، وحتى آخر الزمان. . التشيع نوع من منهج الإسلام. . أما القول بأن التشيع ذو أصول تختلف عن أصول الإسلام فهو شرك. . وقد يقول قائل: ما دمت تعتبر التشيع مرادفاً للإسلام فكأنك تخرج كل من ليس بشيعي من إطار الإسلام. . وأرد، وتشهد كل أعمالي على قولي هذا، بأنني أعتبر نفسي أخاً لكل مفكر غير مغرض. . وحر. . كلنا إخوة في الإسلام، نؤمن بأن الإسلام ينبغي أن يكون الأساس والمبدأ. . الفرق أننا نختلف في فهم الإسلام اختلافاً علمياً. . مثل اختلاف فقيهيْن حول مسألة داخل مذهب واحد، ومن الطبيعي أنه بدلاً من أن يكفّر كل منا

الآخر. . علينا أن نتناقش بشكل علمي، وبأسلوب تمليه علينا أخلاق الإسلام، ويستوجبه أدب الإسلام. . إنني أُخطّىء استنباطه العلمي. . ومن ثم فله الحق في أن يُخطّىء استنباطي العلمي. . إن كثيراً ممن هم ليسوا بشيعة يمكن أن يوافقوني على بعض استنتاجاتي في حين أنني كثيراً ما أقف مشدوهاً حائراً مبهوتاً لا أجد جواباً على بعض الانتقاد التي يوجهها إليّ بعض كبار المشايخ عندنا. . مثلما انتقدني بعضهم على أنني لم أذكر في كتابي «الشهادة» أن الحسين ثار مرة في المدينة عندما كان في سن السادسة[١].

٢ ـ على أي أساس إذن قام هذا الخلاف التقليدي والنمطي بين نوعين من الدعاة خلافاً قد يكون أشد قسوة من خلاف بين تيارين متضادين؟! لقد كان خلافاً في الأدوات أدى إلى اختلاف في النتائج. . فالمعرفة الصحيحة للإسلام في نظر شريعتي تتأتى عن طريق معرفة فلسفة التاريخ القائمة على النظرة التوحيدية و«سوسيولوجيا مجتمعات الشرك» التي تتبين واقع المجتمع وتحلله تحليلاً تاريخياً ورمزياً، وفي كتابه «الحسين وارث آدم» يبين أن الإسلام ليس أيديولوجية إنسانية مرتبطة بزمان بعينه أو مكان بعينه، بل يعتبر تياراً يجري عبر التاريخ الإنساني[٢].

وربما كان أكثر ما أثار حفيظة المشايخ أن شريعتي كان يرى

---

(١) هوامش كتاب «شيعة» لعلي شريعتي ص٢٩٧، ٢٩٨.

(٢) بحث «طرح يك زندگى» ل. غ. ع. ت من كتاب «شريعتي درجهان» ص٣٤ شركة سهامى انتشار بهار ١٣٦٥هـ. ش.

أن إسلامهم «الاسكولاسي» شأنه شأن «إسلام العوام» لا يمكن أن يكون ذا قيمة تذكر، إنه يفضل المسلم اليقظ الواعي المفكر على العالم صاحب الشعبية عند العوام. . وكلاهما يسيران جنباً إلى جنب: بناء الذات في الإسلام والتطور الداخلي لهذا التيار عند الفرد وعند المجتمع(١).

ومن هنا فقد كان أعظم ما قدمه شريعتي من خلال فهمه لنفسية الشعب الإيراني، أنه اختطف شباب هذا الشعب من أحضان الأيديولوجيات الوافدة. . وذلك بطريقة بسيطة هي أنه قدم له فهماً للإسلام يزري بكل هذه الأيديولوجيات وما تتشدق به من مبادىءكانت تعتبر مجرد دريئة تخفي وراءها جذب الشباب نحو تبعية أشد واحتواء أبشع وأقسى. . لقد قدم لهم البديل من التيار الحي المستكين تحت الرماد. . وملأ الشارع الإيراني بالشباب المستعد للموت في سبيل الإسلام. .

ولم يكن شريعتي بالرجعيّ المتعصب الذي يعادي الاتجاهات الحديثة دون فهم، كما أنه لم يكن من المفكرين المتغربين يقوم مقلداً للغرب ويفرط في قواعده وهويته، كان واعياً أشد الوعي بشروط زمانه وأوضاعه وظروفه وبدأ رسالته في توعية الجماهير بتعريفها بمفاخرها، وبأن هذا المسخ الذي يجدونه أمامهم ليس هو الإسلام، بل هو الإسلام كما يريده لنا عدو شديد الدهاء وصديق شديد الجهل والحمق. . بدلاً من أن يقتل الإسلام

(١) المصدر السابق. . نفس المقال ص٣٨.

شوهه. . فيقوم أتباعه بقتله في نفوسهم بأيديهم.

والميزة الكبرى في فكر شريعتي أنه في معرفته للإسلام يبحث في الواقع، ويتجنب المصطلحات التي لا معنى لها والكلمات الرنانة والأفكار الانتزاعية. . وهذه هي ميزة كبرى في الخطاب الجماهيري الإسلامي الذي ما زال أغلب دعاتنا بعيدين عنه، فهم إما خطيب منبر يقوم بالإثارة والتهييج معتمداً على الألفاظ الرنانة وبفكر سطحي أو دون فكر تقريباً، وإما مفكر شديد النخبوية يخاطب الجماهير عن عصور لم يعيشوها وبمثل تجعلهم يحسون أن الإسلام مثالية شديدة البعد عن الواقع. . وعندما يصطدم الإنسان مع الدين. . فلا شك أن هناك فهماً خاطئاً عن الدين. . ولا بد أن الدين قد قُدِّم بشكل خاطىء. . ولا بد أن يكون هذا القلب للواقع نابعاً من خطإٍ مَا. . ومن ثم فعندما يهاجم شريعتي الهيئة الدينية والمسجد والشعائر والتشيع يكون هذا الهجوم منصباً على الصورة المزورة لهذه الأنماط لا عليها بالفعل (بعض مفكرينا الإسلاميين «!!» قرأوا نُتَفاً عن شريعتي فظنوه هكذا. . مفكراً إسلامياً غير معترف بالشعائر). إن شريعتي يحلم بالإسلام الحقيقي. . الذي كان موجوداً قبل عصر الضياع والتشويه. . إنه لا يرى فرقاً يذكر بين شيخ في الهيئة الدينية يمد يديه لتلقي القُبَل بيد والأموال بالأخرى وبين المشايخ الذين انضموا إلى السلطة منذ العصر الأموي. . كلاهما يمثل صدعاً في الدين وتشويهاً للإسلام. .

٣ ـ ومن هنا فشريعتي، في نظر المعتدلين والثوريين من

الهيئة الدينية في إيران، مفكر مسلم وإنسان مكافح وحسن النية وفدائي. . لكنه ليس نبياً ولا معصوماً. . وليس أيضاً مجتهداً أو فقيهاً. . وأنه لا يعتمد في كتاباته على المنابع والمصادر المعتمدة على الوحي الإلهي. . لكن شريعتي لم يدع هذا. . وفي رأي حجة الإسلام حسن يوسفي أشكوري أن فهم شريعتي للأصول الإسلامية الأساسية وتفسيره لها. . لم يكن على درجة كافية من العلم والمعرفة، وأن استخدامه لمفاهيم ومصطلحات مأخوذة من مدارس أخرى للتعبير عن مفاهيم إسلامية من شأنه أن يؤدي إلى بعض التناقض. . كما أن إدراكه للفلسفة وبخاصة الفلسفة الإسلامية لم يكن كاملاً. . لكن هناك جماعة أخرى من الإيرانيين السياسيين النشطاء الذين يقبلون حكم الإسلام دون أن يقبلوا سلطة رجال الدين المباشرة على جوانب غير دينية، يعتبرون أفكار شريعتي أفكاراً على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لتفسير الإسلام تفسيراً جديداً، ووضع المسؤولية كاملة على كواهل الناس، وإعادة الإيمان إليهم، وتحرير الإنسان من الغوغائية والتعصب ومنحه الحرية والإيمان. . ومن هنا كانت الفجوة التي حدثت بين فكر شريعتي ـ لا بين شريعتي نفسه فقد توفيَّ قبل اندلاع الثورة ـ وبين رجال الدين وهم على قمة السلطة. . فقد اعتبرت تلك الأجنحة التي تقبل الدين دون رجال الدين، فكر شريعتي الفكر الإسلامي المناسب الذي يمكن أن يوضع في الكفة الأخرى من الميزان أمام كفة رجال الدين. . ومن هنا فإن الجماعات المناوئة لحكم رجال الدين (خاصة من مجاهدي خلق) ادعت شريعتي

لنفسها، ولم يكن شريعتي موجوداً على الساحة ليدافع عن نفسه، وأنه إن كان يُعد أستاذاً لبعض قيادات المجاهدين.. فهي القيادات الإسلامية قبل أن يقع انقلاب المنافقين سنة ١٩٧٥ ويحوَّل المنظمة إلى منظمة إسلامية ذات قيادات ماركسية. ثم منظمة ماركسية تماماً فيما بعد. بعد المواجهة مع الإسلاميين بعد انتصار الثورة!! بحيث أصبح فيلسوف الثورة شريعتي الذي كان إلى جانب الإسلاميين في معركة ١٩٧٥ يُطرح في مواجهة الإمام الخميني (رمز الثورة الإسلامية) وآية الله مطهري (منظرها وفيلسوفها من رجال الدين) معاً!!

كانت معركة سياسية، والمعارك السياسية في إيران تجرف في طريقها الكثيرين من الأبرياء، ومن لا ناقة لهم فيها ولا جمل، ومن ثم.. فقد اتخذت بعض التدابير لحجب شريعتي بدلاً من فضح زيف إدعاء مجاهدي خلق.. لكني لا أظن أن حجب شريعتي في إيران أمر هيّن، خاصة وأن مزاولة السلطة من قبل بعض رجال الدين قد يلقي بعض الغبار عليهم بالحق أو بالباطل، ويظل شريعتي، الذي استشهد قبيل اندلاع الثورة، وجهاً فكرياً ناصعاً بريئاً من أي غبار.. قدم كل شيء ومضى ليس مديناً لأحد.. ولا في عنقه دم أحد.

كان شريعتي يتخذ من الدين ومن المذهب الشيعي أساساً لفكره، ولمعظم ما يطرح من حلول، إلا أن هجومه على بعض الرموز «المحترمة» في المأثور الشيعي قد حجب كثيراً من جوانب الدور الذي قام به أمام الهيئة الدينية، وفي إيران ـ شأنها في ذلك

شأن كل بلاد العالم المتخلف ـ تلعب الأحقاد الشخصية أحياناً دوراً كبيراً في تحديد مصير الأفكار. ومما يدل على ذلك الموقف الذي تصاعد بين آية الله مطهري (فيلسوف الثورة من بين الهيئة الدينية) وبين شريعتي: فقبل أن ينضم شريعتي إلى حسينية الإرشاد كان مطهري أبرز خطبائها ومحاضريها.. لكن شعبيته تناقصت عندما انضم شريعتي إلى الحسينية.. وكان مما أثار مطهري على شريعتي هجوم شريعتي على أحد رموز التشيع الكبار، وهو الملا محمد باقر المجلسي، فقيه العصر الصفوي، واتخاذه إياه نموذجاً بارزاً للتشيع الصفوي المرفوض من قبل شريعتي لصالح التشيع الأصيل أو العلوي.. والمجلسي هو جامع كتاب «بحار الأنوار» وهو أكبر مجموعة حاوية للأحاديث الشيعية والتراث الشيعي.. وقد وصل هذا الهجوم حتى حلقة الإمام الخميني التي كانت في النجف آنذاك.. وأحدث رد فعل عنيفاً.. ومع ذلك فقد أنصف الإمام الخميني شريعتي بعد انتصار الثورة وقال: «**لقد أثارت أفكار الدكتور شريعتي الخلاف والجدل أحياناً بين العلماء لكنه في نفس الوقت لعب دوراً كبيراً في هداية الشباب والمتعلمين إلى الإسلام**»، لكن الإمام لم يلبث أن أضاف: «على أتباع شريعتي أن يتجاوزوا مرحلة ما عرضه شريعتي عليهم، وأن يتدارسوا أيضاً الإسلام في مصادره التقليدية.. وعلى العلماء في نفس الوقت أن يدركوا أن ما طرحوه ليس هو القول الفصل.. ومن ثم فالحاجة إلى أسلوب معالجة الدكتور شريعتي.. والتقييم الدقيق للأفكار التي طرحها أمر بالغ

الأهمية»[١] هذا هو التقسيم الذي قدمه الإمام الخميني، إذن: أتباع شريعتي وأتباع العلماء[٢] وكان أبرز العلماء عصرانية وأصالة فكر وأغزرهم علماً هو آية الله مطهري.. وعندما عُرف شريعتي على المستوى العالمي عن طريق ترجمة أعماله.. جرت ترجمة أعمال مطهري على قدم وساق داخل إيران نفسها.

وكان المجاهد العظيم آية الله محمود الطالقاني[٣] ممن حاولوا التوفيق بين الفكرين المطروحين على أساس أنهما فكر واحد من منطلقين مختلفين، كانت حسينية الإرشاد قد أقامت احتفالاً بالشهيدين العظيمين، وذلك في أوج الحملة والهجوم على فكر شريعتي من لدن الهيئة الدينية الحاكمة، والتي احتدمت بمجرد نجاح الثورة في ربيع سنة ١٩٧٩ وصيفها. وقال الطالقاني: إن كلا الرجلين بيّنا صورة الإسلام الحقيقية للشباب، أحدهما عن طريق علم الإجتماع والآخر عن طريق علم الفلسفة. وأضاف أن القرآن نفسه تعرض للتفسيرات المختلفة، وأن اختلاف المنطلقات داخل

---

(١) من كلام للإمام الخميني(رض). راجع كتاب «شريعتي درجهان» صفحة ١٩٤، تأليف حميد أحمدي، والصادر عام ١٣٦٥هـ. ش، عن شركت سهامي انتشار(الناشر).

(٢) بحث حامد الجار «إسلام بعنوان يك ايدولوثرى.. مفكرات دكتر علي شريعتي» في «شريعتي درجهان» ص١٩٤.

(٣) يوجد كتاب لآية الله الطالقاني صدر بعد انتصار الثورة بعنوان ـ الشهيدان ـ شريعتي ومطهري. أصدرته: انتشارات ناس طهران. حاول فيه السيّد الطالقاني إبراز وحدة الهدف بين شريعتي ومطهري في استنهاض الأمة وإزالة الشوائب والبدع التي نشأت عند العوام باسم الدين والتشيع. وان كلاً من مطهري وشريعتي دفع حياته ثمناً لهذا المعتقد الذي كان يعتبره الطالقاني واحداً وإن اختلفت طريقة الطرح بين الإثنين حيناً أو تفاوتت أحياناً (الناشر).

الإسلام ليس علامة مرض بل هو علامة صحة ونضج، وواصل الطالقاني ناقلاً عبارة عن الإمام جعفر الصادق فحواها أن الشك هو المرحلة الأولى للوصول إلى الإيمان.. وإن كان شريعتي قد شك في بعض عقائد الشيعة فلم يكن هذا الشك إلا من أجل البحث عن الحقيقة.. وفي سبيل البحث عن الحقيقة قام أيضاً بتحليل المدارس الفكرية الأجنبية وخاض فيها.. لكنه وجد في النهاية ما كان يبحث عنه؛ وجد إسلاماً ثورياً محرضاً.. وعندما اكتشف أخطاءه سعى في إصلاحها، وقارن الطالقاني أسلوب شريعتي بالأسلوب الذي كان سائداً في إيران في تلك المرحلة المبكرة من الحكم الثوري وقال: إن مصيبتنا في أننا لسنا مستعدين لسماع أي شيء.. وانتقادنا لأي إنسان ليس إلاّ من قبيل الدس والبهتان.. هذا جزء من شخصيتنا القومية.. فلا اليساريون مستعدون للانطلاق خطوة واحدة خارج بعض الكليشيهات التي يريدون حل كل المشاكل بها.. ونحن أصحاب الأفكار الدينية أيضاً في نفس الوضع.. لقد تعلمنا بضع آيات من القرآن على يد أحد المشايخ وهو نفسه لا يعلم من أين تعلمها.. وبعدها بدأ كل إنسان منّا يتهم الآخر بضعف العقيدة وبالكفر.. لكن شريعتي فكّر في القضايا ودرسها وتجاوز مرحلة اليمين واليسار بشكل أفضل منّا.. وترك لنا إسلاماً ثورياً.. يختلف عن ذلك الإسلام التقليدي الذي لدينا.. لقد كان هو الذي وضع أساس تلك الثورة الفكرية التي وصل بها الإمام الخميني إلى نتيجة.. وفي موضع آخر من بحثه أكّد الطالقاني على تركيز شريعتي على «العودة إلى الذات»، وأكد على

أنه كان أول من اكتشف ما هو موجود وراء المصطلحات الغربية من ديموقراطية وليبرالية، من فاشية وعرقية مستترة، وأنه عرض بدلاً منها ذخائر القرآن النفيسة ونقض الغبار التقليدي للقرون عن وجه الإسلام(١).

٤ ـ والواقع أن شريعتي في تناوله لبعض معتقدات الشيعة كان أحياناً يتجاوز مرحلة التفسير الجديد إلى مرحلة الرفض الكامل، وكان رفضه أحياناً يضرب في مقتل من الهيئة الدينية، ويضرب اختصاصاتها في الصميم، ومن قبيل هذا الرفض الذي لا يغتفر عند الهيئة الدينية مفهومه عن الاجتهاد وعن التقليد، فالاجتهاد في رأيه مبدأ ثوري حتمي ومستمر في الإسلام، والاجتهاد الحقيقي هو الذي يمكن المجتهد من معرفة التناقض بين التفسير التقليدي للإسلام ومتطلبات الحياة المعاصرة أو القضايا المستحدثة، والاجتهاد هو الإصلاح وتجديد النظر من أجل الوصول إلى نظريات جديدة. كل هذا يمكن أن يقبل، لكن ما لا يمكن أن تقبله الهيئة الدينية أن يرى شريعتي أن المسلم العادي ـ وإن لم يكن مجتهداً ـ يستطيع أن يقوم بهذا العمل. . ومن هنا فليس الاجتهاد حكراً على تلك الطبقة المسماة بطبقة المجتهدين.

وينتقل شريعتي إلى الحديث عن أخطر أصول التشيع

---

(١) «تشيع: «مقاومت وانقلاب» مجموعة مقالات كنفرانس بين المللى دا نشگاه تل أوريو ١٩٨٤ بحث منجول بيان محمود طالقاني وانقلاب إيران. . طهران ١٣٦٨هـ. ش ص١٢٦ ـ ١٢٧.

المعاصر وهو أصل التقليد.. فيرى أن التقليد (وهو الطاعة المطلقة والتبعية لأحد الفقهاء الكبار) ينبغي أن يكون للأفكار لا للأشخاص، فالتقليد للأشخاص قد يكون سبباً في انحطاط وعي الإنسان العادي والإيقاع به في الشرك.. ومن هنا يرى شريعتي أن المؤمن الذي ينظر إلى مرجع التقليد مجرد نظرته إلى شخص أكثر علماً أو أقل علماً ولا ينظر إلى أفكاره هل هي متسقة مع العقل أو غير متسقة معه.. فإنه يرتكب ذنب الشرك، فإن هذه الطاعة العمياء تناقض التوحيد الذي يدعو إلى الإتجاه إلى الله وحده والاعتماد على الله وحده.. والتقليد بالمفهوم الشيعي ـ أي الطاعة التامة لمرجع من المراجع ـ يؤدي إلى فقدان التقليد لمغزاه الحقيقي.. فالتقليد في الحقيقة ضروري من أجل العوام، في حين أنه حتى العامي يملك القدرة على التمييز بين الأفكار المتناقضة[1].. وبعد أن انتشر التقليد في العالم الإسلامي (حتى العالم غير الشيعي، فإن التكتلات حول كبار المشايخ في العالم السني هي نوع من التقليد).. فإن زخم الاجتهاد الذي بلغ قمته في أوائل هذا القرن.. قد أخذ في النزول.

وربما اتخذ بعض العلماء من هذه الأفكار متكئاً لاعتبار شريعتي مفكراً ذا رؤية دينية إسلامية لا تعترف بالقيادة الدينية التقليدية، لكن شريعتي في الحقيقة لم يكن رافضاً لطبقة رجال الدين في حد ذاتها، بل كان كل اعتراضه منصباً على عجز هذه الطبقة عن

(١) بحث عبد العزيز ساشادنيا «علي شريعتي ايدئولوگ انقلاب إيران» في «شريعتي درجهان» ص٧٩.

إقامة جسور مؤثرة مع طبقة الشباب. . وربما كان هذا الموقف نتيجة حتمية لموقف مرتضى مطهري عندما ترك حسينية الإرشاد بعد انضمام شريعتي إليها، على أساس أن التيار الذي كان يتبناه شريعتي ويسري بين الشباب لم يكن التيار المقبول لدى الهيئة الدينية. . وقد ألمعنا إلى أن هذه النظرة كانت ذات آثار بعيدة المدى على الساحة الإيرانية بعد نجاح الثورة الإسلامية، وعندما كانت فصائل المقاومة تقابل بصدورها العارية رصاص جيش الشاه وشرطته لم يكن هناك وقت لفحص إسلام كل فصيلة، ورؤية عما إذا كان هذا هو الإسلام الحق بميزان رجال الدين أولاً. . لكن الفرصة كانت سانحة فيما بعد وخاصة منذ أواخر سنة ١٩٨٠ لكي يصبح «إسلام رجال الدين» هو مقياس البعد عن السلطة أو القرب منها. . وزُجَّ باسم شريعتي في معركة لم يكن له يد فيها، وكان في كتابات شريعتي التي كانت تُطبع وتُوزع على نطاق واسع ـ وربما داخل بعض طبعاتها بعض الحشو والزيادة بما يوافق مقتضى الحال ـ أقول: كان في هذه الكتابات ما لم يعد رجال الدين يستطيعون الصبر عليه. . وخاصة وهم على قمة السلطة. وفي حين أن التقليد أصل من أصول التشيع وإن كان من الأصول التي اتسع مفهومها على يد مرتضى الأنصاري في منتصف القرن التاسع عشر. . ويمكن الاختلاف فيه وتقبل هذا الاختلاف بشكل أو بآخر. . فقد تعرض شريعتي أيضاً لبعض الأصول التي تعد من أُسس التشيع. . ومنها مبدأ «الوصاية» فقد كان يرى أن الوصاية تعد تعييناً بالاسم. . وهي لا تقف أمام مبدأ الشورى الذي يعد من قبيل الاختيار وينبغي احترام أصحاب الشورى كاحترام أصحاب

الوصية تماماً. . هذا في حين أن الشيعة يرون أن الشورى لم تكن شورى وأنها أمر دبر بليل لحرمان علي عليه السلام، من حقه. . وهو أمر أشار إليه شريعتي نفسه في بعض أعماله. . لكن مسألة وضع الشورى مع الوصاية في مستوى واحد أمر لم يكن الفقهاء على استعداد لقبوله بأي حال من الأحوال.

٥ ـ كان شريعتي في الحقيقة يعاني ما يعانيه المثقفون المؤمنون بالإسلام، كركيزة ثقافية ومنطلق سياسي، من الدارسين للمذاهب والاتجاهات الأخرى، لكنهم يرون فقهاء الإسلام الكبار لا يهتمون بما يجري في العالم ـ بله في بيئاتهم هم ـ في هذا العصر، ويحبسون أنفسهم في إطار مفاهيم قديمة وقضايا قديمة، ويصدق هذا على فقهاء الشيعة وفقهاء السنة على السواء، فالمسلمون لم يعودوا في حاجة إلى الهداية بمفهومها القائم لديهم، ومن المفروض أن الخطاب الإسلامي خطاب عالمي، وليس من المطلوب أن يخاطب الفقيه جماعات المؤمنين المترددين على المساجد فحسب، بل عليه أيضاً أن يوجه خطابه إلى جماعات عديدة تعيش داخل المجتمع. . وليس لها من الإسلام إلاَّ الأسماء. . ولا يهمها الإسلام في قليل أو كثير. . وهؤلاء لا يجدي معهم الخطاب «المنبري»، والذي تبثه بكل أسف الإذاعات الدينية التي تبث في أكثر من بلد «إسلامي» ساعات عديدة من الليل والنهار. . والواقع أن شريعتي في هذا المجال يلتقي مع فقيه فقهاء عصره الإمام الخميني ـ رضي الله عنه ـ فقد كان يأخذ على الفقهاء المعاصرين الذين سماهم «فقهاء الحيض والنفاس» و«وعاظ

السلاطين» غربتهم الغريبة على الجماهير وعما تعاني منه هذه الجماهير في الحقيقة وانصرافهم إلى أبحاث ذهنية شديدة التعقيد في مسائل فرعية وهامشية. . ولم يكن شريعتي بالذي تفوته مواقف آية الله الخميني فقد أشاد بها في أكثر من موضع، كما أشاد أيضاً بأسلوب التفكير عند العالِم الشهيد محمد باقر الصدر.

لم يكن شريعتي يكتفي بمجرد الهجوم، فقد كان يقدم المقترحات التي تبين الصورة المثلى التي ينبغي أن يكون عليها عالم الإسلام ونمط التربية الذي ينبغي أن يخضع له، فعليه في البداية أن يكون عالماً بسيرة الرسول، ﷺ، وسنته قولاً وفعلاً؛ لأن موقع الرسول في المجتمع القرآني موقع قائم بذاته لا يستطيع أن يسده سواه، وعليه أن يكون على علم دقيق بتاريخ الإسلام وسير الصحابة والأئمة من آل البيت ويتخذ منهم أسوة حسنة في خلقهم وإيمانهم ووفائهم، وعليه أن يكون واسع الإحاطة بالثقافة الإسلامية، متخصصاً في فرع من فروعها كالقانون أو الفلسفة أو التاريخ. . وربما فات شريعتي أن يذكر أن على الفقيه أن يكون عالماً بلغة من لغات العصر، مطلعاً على ما يدور في العالم، لقد كانت رواية سلمان رشدي المسماة «آيات شيطانية» فضيحة مزدوجة، وفضيحة للحضارة الغربية التي أفرزت هذا المسخ واحتضنته. . وفضيحة أيضاً بالنسبة لعلمائنا الذين اكتفوا بالسب والشتم ولم يهتم أحدهم ببيان عناصر السقوط في الرواية فناً وشكلاً ومضموناً.

ولم يكن شريعتي كمصلح داخل المذهب الشيعي يسكت

على موقف مستحب من مواقف رجال الدين، لكنه كان يعتبر الآخرين الذين لا يلعبون أي دور اجتماعي أو سياسي في حياة المسلمين «الكهنوت الإسلامي» بالفعل الذي لا يختلف في كثير أو قليل عن الكهنوت الكنسي (في العصور الوسطى بالطبع وإلا فإن الكنيسة الآن تلعب دوراً سياسياً مهماً جداً في العديد من مراكز وجودها ولم تعد هناك مسافة تذكر بين الله وقيصر)!!

وهذا هو الدور الحقيقي الذي لعبه شريعتي: الدعوة إلى إسلام لا يقف على الهامش، ولا يُحبس في المسجد، ولا ينزوي أمام الدعوات المعاصرة الجذابة إلى العدالة والحرية والمساواة، بل يقف أمامها ويبين أنه سبقها، وأنها ليس ـ كما يبدو ـ يفتقر إلى هذه الأصول؛ لأنه لم يستخدم مصطلحاً لم يظهر إلا منذ بضع سنوات، ويبين أن التشيع العلوي وهو التشيع الأصيل الذي يختلف عن هذا المسخ الموجود والذي يسميه «بالتشيع الصفوي» يحتوي على كل هذه المبادىء ويقدم الصورة المثلى لكل مبادىء التشيع. . ويستطيع المسلم الشيعي إن عاد إلى أصول تشيعه. . كما يستطيع المسلم السني إن عاد إلى أُصول مذهبه. . أن يلتقيا معاً متكاتفين في تقديم إسلام يستطيع أن يقف أمام الغرب في الخارج، وأمام التغريب في الداخل. يقول في خطاب أرسله إلى ولده: «إن الحديث يدور عن مجتمع نصفه نائم مخدور مسحور ونصفه اليقظان هارب، نحن نريد أن نوقظ النائمين ليقفوا على أقدامهم ونعيد الهاربين الفارين ليبقوا». ومن هنا يدقق شريعتي كثيراً ـ ويتضح هذا من المجموعة التي بين أيدينا ـ على أسلوب فهم المثقفين للدين، ودور هذا الفهم الخاطىء

في الحض على كراهية الإسلام وزيادة عدد الهاربين منه يوماً بعد يوم، ويعد الفهم الصحيح للإسلام علاجاً من الغربة عن الذات، والتشبه والفراغ الروحي والفكري والعبودية التامة، تلك العبودية النابعة من داخل من ابتلى بها، عبودية من سلبت منه أُسس ثقافته وفكره، وانقلب إلى مستهلك لما يفرض عليه من قوى مسلطة عليه. . انقلب إلى مجرد آنية خالية تبتلع كل ما يضعه فيها الغرب المسيطر على العالم»[١].

ويعتبر شريعتي أن التشيع بعد تنقيته هو بديل للتغرب والماركسية، حينذاك يكون تشيّعاً فعالاً سياسياً وثورياً مجدداً يقوم على أساس من الرؤية الكونية للتوحيد، وهو يرى أن هذا التشيع هو التفسير المتجدد للقرآن وتاريخ صدر الإسلام والتاريخ الإسلامي، وأنه يستمد من وجهات نظر سوسيولوجية ونفسية. . وهو مذهب مسيس في الأساس، فهو مذهب الصراع الدائم من أجل العدالة الاجتماعية والمساواة. وهو مذهب الاعتراض على «الوضع القائم»، وهو من ثم الوسيلة الوحيدة الصالحة لنجاة المجتمع الإيراني[٢].

وبالرغم من هذه النبرة الشيعية العالية قد ينزوي التشيع في فكر شريعتي تاركاً موضعه للإسلام «الرسالي» إسلام ما قبل

---

(١) علي شريعتي: آري اينچنين بود برادر ص٢٨ ـ ٢٩ وانظر بشكل موسع: العودة إلى الذات للمترجم.

(٢) بحث براد هانسون: غرب زدگى در إيران از ديدگاه صمد بهرنكي جلال آل أحمد وعلي شريعتي» في «شريعتي درجهان» ص١٦٣.

المذاهب. وقد استخدم هذا المصطلح كثيراً في بدايات الجمهورية الإسلامية في إيران، كانت الثورة المنتصرة تريد أن تتجاوز جانبها المذهبي وتطمح إلى احتواء الأغلبية السنية، لكن هذا في حد ذاته كان سبباً في خشية العديد من المشايخ الذين لم يكونوا على استعداد لقبول تضحية الثورة بالتشيع في سبيل هدف قد لا يتحقق. . ولو كان هذا على المستوى التكتيكي فهناك قضايا لا يمكن الاقتراب منها، أهمها تشيع إيران ووحدتها داخل حدودها.

على كل حال يعد هذا الجانب الرسالي من أفكار شريعتي جانباً خفياً قلما تعرض الباحثون له ـ كأن يرى أن الأسلوب الرسالي في معالجة الأمور يختلف كثيراً عن سائر الأساليب المحافظة والثورية والاصلاحية، فأصحاب الأساليب المحافظة ينادون بالحفاظ على المجتمع بكل خرافاته، فهم حراسه. فالمحافظ يرى أن مجرد الإصلاح يعني خلع الشجرة من جذورها. . ومنبع العلاقات الاجتماعية عنده في سيادة التقاليد أياً كانت هذه التقاليد. . أما الثوري فهو على العكس يرى أن الحفاظ على التقاليد الموروثة من قبيل الجمود الاجتماعي وأن من الضروري اقتلاعها من جذورها. . بينما يقف الإصلاحيُ موقفاً وسطاً، فهو يرى أنه ينبغي أن تمهّد الأرضية الاجتماعية للتطور التدريجي. . ويختلف الأسلوب الرسالي عن الأساليب الثلاثة السابقة، إنه يأتي إلى التقليد الراسخ فيأخذ شكله ويحافظ عليه، لكنه يمنحه مفهوماً ثورياً. .

فالرسول، عليه الصلاة والسلام، كان يحافظ على بعض التقاليد التي رسخت بجذورها في المجتمع، لكنه كان يغيّر

محتواها واتجاهها ونمط ممارستها. . ويضرب شريعتي مثالاً على الأسلوب الرسالي بالحج. . فقد كان العرب في الجاهلية يطوفون بالكعبة المليئة بالأصنام، وكانوا يعتقدون أن إبراهيم الخليل عليه السلام، كان قد بنى الكعبة من أجل أن توضع فيها الأصنام، لكن الرسول، عليه الصلاة والسلام، بدّل هذا الحج الجاهلي ـ مع الاحتفاظ بكل مراسمه ـ إلى أعظم وأعمق ما يمكن أن يعبر عن وحدانية الله سبحانه وتعالى. . لقد احتفظ الإسلام بالمراسم لكنه أكسبها مفهوماً ثورياً. . ومثل هذا الأسلوب جعل العرب أقل نفوراً من الدين الجديد. . لقد تغيروا دون أن يحسوا بأن ثمة تغيراً ظاهرياً قد تم. . التغير هنا من الباطن وفي الأعماق. . ويرى شريعتي أن هذا الأسلوب هو الأسلوب الأمثل الذي ينبغي أن يتبعه المفكرون الذين يتميزون باليقظة، وهو الأسلوب الأمثل للوصول إلى نتائج ثورية دون خسائر تذكر. . ومن أهم مميزات هذا الأسلوب أن المفكر الذي ينتهجه لا يجد نفسه بعيداً عن المجتمع وعن الجماهير (وهم ميدان عمله). . واستطاع شريعتي نفسه عن طريق هذا الأسلوب أن يؤسس سوسيولوجيا إسلامية وفلسفة تاريخية إسلامية وعلم إنسان إسلامي كلها مبنية على أساس من التوحيد(١).

ثانياً: هذا الكتاب:

يذكر شريعتي عادة بأنه ذلك المفكر الواعي الذي استطاع

---

(١) بحث سروش عرفاني: علي شريعتي معلم انقلاب في شريعتي درجهان ص٢٢٤ ـ ٢٢٩.

بفكره الحي الذي يتعامل مباشرة مع معتقدات الجماهير أن يحمي الأغلبية الساحقة من الشباب الإيراني من التردي في حمأة الماركسية التي كانت قد طرحت في الساحة كبديل للجبهة الوطنية وغيرها من أشكال النضال التقليدي . .

كان شريعتي بطرحه للإسلام على وعي بأنه يطرح شكلاً من أشكال النضال قد شوه وابتعد عن واقعه الأصيل، بل وتحول إلى إطار معرفي غير مفهوم من أنصاره وأعدائه على السواء، أما الأنصار فهم يدافعون عن إسلام لا يمكن الدفاع عنه فيلجأون إلى طرق وتفسيرات تزيده بعداً عن أصوله، أما الأعداء فهم نافرون كارهون يرون في الإسلام تخلفاً . . ويرى شريعتي أن الحق معهم، فإن الذي قدم لهم كإسلام ليس من الإسلام في شيء، ومن هنا كان شريعتي يعمل في مجالين: المجال الأول تنقية الإسلام مما لحق به من شوائب وإعادة وجهه الثوري الذي يغير ويبدل ويخلق . . والمجال الثاني هو بيان كيف انقلب هذا الوجه الثوري شديد التقدمية إلى هذا الواقع الأليم الرجعي الذي يدفع بالشعوب إلى النوم والتكاسل والتواكل . وهذا هو الميدان الجماهيري الذي وجد فيه شريعتي نفسه . . وأولئك الذين تابعوا أحداث الثورة الإسلامية في إيران في عامها الدامي طالما تساءلوا بشغف واستغراب: كيف تحول عاملٌ من عوامل التخدير والتكاسل والقعود و(الاستحمار) في مجتمعات أخرى إلى عامل يقظة وقوة وثورة وحركة في هذا المجتمع؟! الجواب هو: شريعتي وما قام به شريعتي . . وما كتبه شريعتي!!

١ ـ وهذا الكتاب الذي بين أيدينا يقدم أحد الأعمال التي تناول

فيها شريعتي عملية تنقية مفهوم الدين وإعادته إلى صيغه الأولى، وبخاصة تلك الأعمال التي تتسم بالجماهيرية وتتميز بالمباشرة. . وتتصف بهذا الوضوح الذي يميز ما يقدم إلى الجماهير مباشرة من فكر وهي بالطبع غير أعماله الفكرية التي تتسم بالبعد التنظيري مثل «معرفة الإسلام» و«تاريخ الأديان» و«الحضارة والمدنية».

هذا الكتاب هو ترجمة لرسالته الشهيرة «أبي، أُمي، نحن متهمون» وفيها يتناول شريعتي حيرة الجيلِ الشاب حول ما يرونه من مظاهر الدين وما يقدم إليهم على أنه أُصول الدين، وبين ما يسمعونه غير مخفين سخريتهم من هذا الدين الذي يرونه. . ويرد عليهم شريعتي متناولاً هذا الذي يحتجون عليه مظهراً مظهراً وشعيرةً ومبيناً إلى أي مدى ابتعدت هذه الشعائر عن أصولها وكيف انقلبت هذه العقائد إلى غير المراد منها تماماً.

وغني عن الذكر أن المناقشة هنا لا تتناول مدى صحة المذهب الشيعي من عدمها ومدى حقانيته أو بطلانه. . فليس هذا مجاله. . المقصود هنا بيان كيف استطاع مفكر واع وعظيم مثل شريعتي أن يتعامل مع المادة الموجودة تحت يده ويحوّلها من مادة خمول وضعف واستكانة واستسلام إلى مادة نضال وثورة وحركة وتغيير. . ومعجزة. . وهو أمر لا يمكن فهمه عن طريق التلخيص. . بل هو في حاجة إلى قراءة كاملة ومتباينة عن النص الذي أرجو أن أكون قد وفقت في نقل «روحه» لا «كلماته» فضلاً عن أن النصوص تقدم روحاً «شيعية» خطيرة جداً لم يستطع شريعتي وهو الفيلسوف (التقدمي الموضوعي) أن يخفف منها في مواضع

عديدة من كتابه وقد آثرت تركها كما هي لكي يكون الإتجاه الشيعي معلوماً تماماً.

هذا ومن الله سبحانه وتعالى التوفيق.. وليس من العبد إلا جهد المقل.

العمرانية في ٢٧ صفر سنة ١٤١١هـ
١٨ سبتمبر سنة ١٩٩٠م

د. إبراهيم الدسوقي شتا
استاذ ورئيس قسم اللغات الشرقية
كلية الآداب ـــ جامعة القاهرة

أبي.. أمي..

نحن متهمون (١)

(١) ترجمة: پدر، مادر، مامتهميم أبي.. أمي.. نحن متهمون الطبعة الثانية.. نشر تصويري من اتحادية انجمن هاي إسلامي دانشجويان در أوروبا وانجمن إسلامي دانشجويان در أمريكا وكانادا. ارديهشت ١٣٥٥هـ. ش.

«لقد أثارت أفكار الدكتور شريعتي الخلاف والجدل أحياناً بين العلماء لكنه في نفس الوقت لعب دوراً كبيراً في هداية الشباب والمتعلمين إلى الإسلام»(١).

(١) من كلام للإمام الخميني(رض). راجع كتاب «شريعتي درجهان» صفحة ١٩٤، تأليف حميد أحمدي، والصادر عام ١٣٦٥هـ. ش، عن شركت سهامي انتشار(الناشر).

قمت ليلة الأمس في آخر محاضرة ألقيتها ـ لأني أنا نفسي أُحب أن أدرس ولا أحب إلقاء المحاضرات ـ باستنباط بعض النتائج في الأبحاث والقضايا التي كنت قد طرحتها في الليالي الأخيرة.. أو خلال تواجدي في هذا المكان في الشهور الفائتة، لكن اللطف الذي أبديتموه وفاق الحد، وتجاوز ما أراه في نفسي من مكانة وقدر، اضطرني إلى المجيء الليلة وهذا من واقع إحساسي بالمسؤولية نحوكم..

كان الموضوع المزمع الحديث فيه الليلة هو «عليّ، روح ذات عدة أبعاد»، لكنني رأيت أنه خلال تلك الأمسيات، وخلال المحاضرات التي ألقيت من قبل، وفي السنة الماضية خلال محاضرة ألقيت تحت عنوان «عليّ حقيقة تشبه الأساطير» كنت تحدثت عن هذا الموضوع بشكل أو بآخر.. ورأيت أنني أُريد الليلة أن أطرح قضية حيوية لا تحتمل التأخير؛ لأنه من المحتمل ألا تسنح لي فرصة الحديث إليكم وطرح هذه القضايا.

عالم في اتساع حارة:

هناك قضية أساسية أطرحها اليوم وهي أننا متهمون في زماننا وأمام جيلنا المتعلم بـ«تأييد الدين» و«الإيمان بالتشيع». ومن حسن الحظ، أن أغلبية المؤمنين بالدين وبالمذهب في مجتمعنا لديهم الفرصة للعيش في نطاق شديد الانغلاق، هو ذلك النطاق الذي لا يتجاوز محل سكنهم وجماعة خاصة من المجتمع، ولا علم لهم بعد ذلك بما يجري خارج هذا النطاق من حوادث أو أحداث أو ما يدور من وقائع. وهؤلاء من أصحاب الضمائر المستريحة والمسؤوليات الخفيفة المحدودة، والعالم كله بالنسبة لهم على خير ما يرام، والمجتمع على أحسن ما يكون. وفي الأساس فهذا النمط من التفكير عند من يعيش في مثل هذه البيئة يرى أنه لا شيء يحدث، ولا تناقض يُعنى، يجعله يحس بالمسؤولية. إنه مشغول بأمر دينه، وكل الذين يحيطون به في هذه البيئة التي يعيش فيها متدينون، يؤدون شعائر الدين أيضاً، يقيمون الصلاة ويتلون الأدعية، ويقيمون مجالس تلاوة الروضة ويصومون. وكل الناس ـ أي أولئك الذين يحيطون به ـ يشتركون في إقامة الشعائر الدينية، كل العائلات بنسائها ورجالها وصبيانها وبناتها يعتقدون بـ«السيد الشيخ»، ويؤمنون كل الإيمان بمبادىء دينهم وبالشعائر والتقاليد المذهبية الخاصة بهم، ويعملون أيضاً بما يعتبرونه مسؤولياتهم المذهبية والدينية، ومن هنا فلا حادث جلل قد حدث، ولا أمر خطير قد خطر يستدعي عملاً حتمياً وثورياً وثقيلاً. لم يتغير شيء بحيث ينبغي عليه أن يغير نفسه أو طريقه أو حديثه أو أُسلوب

تفكيره. ليس الدين في حالة ضياع بحيث ينبغي عليه أن يحافظ عليه، ليس معرضاً للخطر بحيث ينبغي عليه أن ينقذه من الخطر. ومن هنا فهو ـ والحمد لله ـ يعيش في طمأنينة مذهبية، ومسؤولية منجزة، وطريق معبد وحياة هادئة وزمان موات، ويتنفس في جو لا عواصف فيه ولا رياح، أغلق أبوابه على نفسه آمناً مستريحاً، فلا يحس تعباً، ولا قلق يعتريه، ولا رعب يعصف به..

لكن أمثالي يوجدون في تيار آخر، منتمون إلى طبقة أخرى، وهم من جيل آخر وعصر آخر، متصلون بثقافة مختلفة وملمون بأفكار وفكر أخرى، ومتأثرون بحركات ومدارس وأحداث فكرية واجتماعية وسياسية مختلفة، وبعبارة واحدة: إنهم ينتمون إلى عالم آخر.

وهناك كثيرون من المؤمنين أو الذين يبدون مؤمنين بالدين التقليدي الموروث الموجود يعترضون على كثير من تحليلات أمثالي وتفسيراتهم، ليس ما يتصل منها بالمذهب فحسب، بل لا يغفرون لنا أيضاً أشياء صغيرة، فهم مثلاً يتساءلون: لماذا ترتدي ربطة عنق؟ ولماذا تُزيِّن لحيتك؟ لماذا لا تطلب من مستمعيك أثناء محاضراتك أن يهتفوا بالصلاة على النبي وآله بالقدر الكافي؟ ولماذا لا تذكر بعد اسم علي عبارة عليه السلام وبعد إسم النبي صلى الله عليه وآله؟! بل.. لماذا تقف خلف المنصة؟! ولماذا تشرب الماء وأنت على المنصة أثناء المحاضرة؟!

وهذه هي أعظم المخاطر، وأكثر الأخطاء إثارة للدهشة،

وأشد الانحرافات وأنواع الأعوجاج والسقوط التي لا تقبل التحمل بالنسبة لبيئتهم الاجتماعية ولعالم عقائدهم المذهبية الفكرية والروحية. . هذه هي الأمور التي جعلتهم في هذه الحالة من الضيق!! هذه هي إذن اعتراضاتهم ومخاوفهم الأساسية. . هذه هي فحسب تلك التي ذكروها في كتبهم. . بل كتب كتّابهم وعلمائهم. . وهي بالنسبة لهم مخاطر تحدق بالإسلام في هذا العصر، ولو زالت هذه المخاطر، فسوف يعيشون ثانية في طمأنينة مذهبية ووجدانية وفكرية واجتماعية دون شائبة تعكر الصفو، وسوف تطمئن ضمائرهم من جهة الحفاظ على الدين، والحفاظ أيضاً على الأتباع[١]. ولكن الحق معهم على كل حال، ففي نطاقهم يعد الإسلام موجوداً والتشيع والولاية قائمين، والمسجد والمحراب والتكية والروضة والخُمس والزكاة والحج والزيارة. . على ما يرام. . وكل الشعائر موجودة. . وليس في الإمكان أبدع مما كان!!

لكن أولئك الذين نشأوا في جو آخر وجيل آخر، ويفكرون مثلي، يعانون هنا من تناقض ما، من نوع من اللامبالاة ومن ألم عظيم، لا يستطيعون البقاء هادئين. وفي الشريحة الاجتماعية التي أنتمي إليها، أي فئة الشباب والمتعلمين الذين تعلموا في إيران وأوروبا، وأولئك الذين يلمون بثقافة العالم اليوم، تلك المجموعة التي تعرف المدارس الجديدة والعقائد الجديدة والأعمال الأدبية

(١) لأن كل هذه الاهتمامات المذهبية والمخاوف الاجتماعية ذات جذور اقتصادية قبل أن تكون ذات جذور عقائدية.

والفنية المعاصرة، والأفكار والمعتقدات الفلسفية والاجتماعية العالمية عن طريق الترجمة أو عن طريق النصوص الأصلية الأوروبية وغير الأوروبية، وهم في نفس الوقت يحاولون الوقوف في وجهها ومقاومتها، يحاولون البقاء أوفياء لأصولهم المذهبية وإيمانهم الأول. . هؤلاء يعانون مسؤولية عظمى وألماً عظيماً.

نحن متهمون!

أرجوكم إن كان ثمة مرارة شديدة في كلامي الحاد، في انتقاداتي المفحمة والحارة والصريحة، فاغفروا لي هذه المرارة إذا كنتم تصدقونها وترون فيها شيئاً من الحقيقة. . لأن الحديث الذي يتوخى المصلحة مستساغ، والخداع ونسج الأكاذيب والتأييد والمدح أمور جميلة ولذيذة، لكن الحقيقة مرة. ودعونا نبدأ من التحذير الكامن في الحالين: كتمان الألم وبعث السرور في القلب بالكلمات المهدئة. . دعونا نقف في مواجهة هذا المرض ونقول بمرارة وحدة وبصراحة ودون مواربة:

«إن الخلايا السرطانية نفذت في دمك وأعماق مخك وبطينات قلبك. . وتقدمت بعنف. . والمهلة قصيرة والمصيبة ثقيلة» وخلافاً لهذه البيئات المغلقة التقليدية والموروثة المذهبية التي عندما يكون المرء فيها مؤمناً بالأصول العقائدية لدينه. . ومتديناً ويتحدث عن الإسلام أو عن التشيع أو عن الله. . أو أساساً عن المذهب ـ يصبح مجالاً لاهتمام الجميع، يهتم الجميع بعملية تقبله، يُقبلون يده، يؤمنون حياته وعيشه، يحترمونه ويبجلونه. .

ثم يُعامل فيما بعد كشخصية عظيمة وكوجه نُوراني وعالم روحاني. . يكسب الحيثية والثروة كليهما عن طريق الدين وباسم الدين. . وفي المحيط الذي أوجد فيه ويوجد فيه أمثالي: الأمر على العكس. . يكون الإيمان بالدين تهمة فظيعة. ففي هذه البيئة: لو أن أستاذاً أو طالباً أو مترجماً عصرياً أو كاتباً أو فناناً أو مفكراً أو شاعراً أو فيلسوفاً أو عالم اجتماع أو عالماً عصرياً من علماء النفس، لو أن واحداً منهم كان لديه ميل ديني، فإنّه يعتبر من نقاط ضعفه. . ضعف اجتماعي وضعف علمي وفكري. . وفي البيئة التي نحن فيها. . وهي تخالف تماماً بيئة المذهب الموروثة التقليدية ـ وفيها لو قام أحد بصلاته ودعائهِ ثم صلى ركعة نافلة بعدها لاكتسب حيثية إضافية بين الناس ولأمنت حياته المالية والمعنوية على السواء ـ لكن في هذه البيئة التي نحن فيها لو أشار أحد قائلاً: انظروا، في حين أنه عالم من علماء العصر. . درس جيداً. . ويعرف المدارس المعاصرة. . ولديه معرفة بثقافة العصر ورؤيته. . لكنه ذو معتقدات دينية أو إسلامية أو شيعية. . فإن ذلك الشخص يفقد كل مميزاته الفكرية والشخصية العلمية، وإن لم يستطيعوا إنكار قدرته العلمية. . أنكروا شخصيته الأخلاقية والاجتماعية، واتهموه بأنه قد وضع علمه في خدمة الدين لصالح هذا أو ذاك. . هذا التكتل أو ذاك التكتل، ولغير صالح الناس والعصر، ومن أجل انحطاط الجماهير وتوقفها!!

والنمط الذي يعود من أوروبا، سواء كان عالماً من علماء الاجتماع أو عالماً من علماء النفس أو فيلسوفاً. . فإذا كان مترجماً

يعلم ماذا ينبغي عليه أن يفعل لكي يحافظ على شخصيته العلمية كمفكر مجدد وتقدمي وثوري. وتعتبر جماعة المفكرين المجددين نفسها مسؤولة عن الدفاع عن قيمه العلمية وشخصيته الاجتماعية. هو يعلم أنه إذا قام بترجمة حديث مع «جان بول سارتر»[(١)] أو «برخت»[(٢)] وأمثالهما من أصنام الفكر في عصرنا سوف يسجل إلى الأبد كوجه عالمي ومفكر تقدمي في المجتمع. لكن إذا جاء هذا الشخص نفسه، ونشر عملاً ذا طابع ديني.. كان هذا أول شقائه، ففي الجناح الديني السلفي الموروث.. لا يمكن الاعتراف أساساً بكتابه ككتاب دين.. ولن يتقبلوه كإنسان يتحدث عن الدين.. ودون أن يقرأوا كتابه أو يسمعوا كلامه أو حتى يعرفوه سيجعلون منه هدفاً للاتهام والتكفير وإلصاق تهمة الفسق.. هذا هو مصيره من هذه الناحية.

وبين المفكرين التقدميين المجددين الذين يتنفسون بدورهم في جو الغرب وفضاء الشعارات والمدارس المسيطرة على أفكار العصر، سوف يتعرض أيضاً للقمع كـ«إنسان غريب لا تزال توجد فيه انتماءات سلفية ورجعية». أو على حد قول واحد من نفس هذا النوع من المفكرين وصفني في جريدة «شركة آيندگان المساهمة»

---

(١) جان بول سارتر (١٩٠٥ ـ ١٩٨٠): فيلسوف وكاتب وناقد فرنسي. من روّاد الوجودية المتشائمة. انحاز إلى بعض مبادىء ماركس. رفض جائزة نوبل ١٩٦٤.

(٢) برتولت برخت (١٨٩٨ ـ ١٩٥٦): كاتب مسرحي ألماني من زعماء التعبيرية في المسرح الألماني. صاحب مدرسة «الابتعادية». له مسرحيات مشهورة. (المصحح).

قائلاً: «إنه إنسان بينما يوصف بأنه عالم فإن هناك رواسب دينية لا تزال باقية في ذهنه تشل تفكيره العلمي.. وذلك راجع إلى تربيته الأولى التي أبقته في ذلك الانحطاط الديني القديم»!!

لماذا يكون الأمر هكذا؟ لماذا؟ لقد جئت الليلة لأتحدث إليكم.. في هذه الليلة الأخيرة لا كخطيب أو محاضر ديني، أو لأقدم محاضرة علمية وأخلاقية، ولا كأستاذ أو كاتب أو عالم من علماء الإسلام، أو عالم اجتماع أو واعظ أو رجل دين، أو زعيم أو مرشد.. إنني لم أدعِ قط صفة من هذه الصفات، ولست متسماً بواحدة منها.. لكنني جئت على العكس لأتحدث ممثلاً عن طبقتي.. وعن رهطي.. نفس تلك الطبقة ونفس ذلك الرهط الذي يتهمني بالسلفية وعبادة القديم والنزعة المحافظة والانتماء إلى الجناح الديني.. جئت لأدافع عن نفس تلك الطبقة.. وفي هذا المحفل الديني وأمامكم أنتم المتدينون المؤمنون.. وأنصفهم على لسانهم.. وأعترض عليكم.. وأتهمكم!!

إنني منتم إليهم، كنت طوال عمري طالباً ومعلماً.. وإذا كنت مترجماً أو كاتباً أو محاضراً.. فقد كنت في هذا الجو وفي هذه البيئة.. ونشأت في هذه الثقافة، وأنا منسوب إليهم أفهم حديثهم وأعرف نفسياتهم.. ولما كنت قد طويت كل المراحل الدراسية، طويتها كلها فصلاً بعد فصل، وذهبت إلى مدرسة المعلمين التحضيرية، واختلطت ليل نهار بالطلاب الذين خرجوا من قلب الناس، وجاءوا من أعماق الشقاء والفقر الريفي والحضري في المجتمع، وعشت معهم، ومنذ سن الثامنة عشرة بالتحديد

زاولت التدريس وبدأت فترة البلوغ في حياتي بالتعليم. . وكنت طوال حياتي معلماً وتلميذاً، وجمعت بين الدراسة في الحوزة العلمية القديمة وفي مراكز الثقافة الجديدة، وبين الدراسة في إيران والدراسة في الخارج، وقمت بالتدريس في جميع المراحل بداية من السنة الأولى الابتدائية إلى آخر مراحل الدراسة الجامعية، ونشأت منذ الصغر في قلب الحوادث والتطورات الاجتماعية والأزمات الفكرية التي حدثت في بيئتي. . واتصلت اتصالاً مباشراً وواعياً بالموجات العقائدية والعاطفية والصراعات الأيديولوجية لزماني، وقضيت أيامي ولياليّ دائماً مع القلم والكتاب. وكنت على علم بسيطرة الثقافة الغربية وغزوها والاستسلام العاجز من أشباه المفكرين أمامها، والمقاومة المتعصبة من أشباه الدينيين في مواجهتها، وكنت أفكر بين هاتين الثقافتين القديمة والجديدة عندنا التي تدعي إحداهما انطلاقها من الدين وتدعي الأخرى العصرية. وكنت حاضراً في قلب مرحلة انتقال نمط مجتمع من مرحلة التقليدية المقلدة إلى التحديث الإجباري، وكنت شاهداً على تبديل «القيم» في الحياة والأخلاق والفكر. ولما كنت ذا جذور قروية، فقد لمست واقعية معنى الجماهير. ولما كنت ذا تربية دينية فإن آصرة الدين قد ربطتني بقلب الناس وعمق الروح والفطرة، والضمير المستتر لمجتمعي. . ولما كان تعليمي غربياً فقد عرفت روح عصري ورؤيته، ووضعت في بحبوحة القضايا المطروحة في العالم وتمر بالإنسان، وكنت واعياً بالمصير الذي سوف يتعرض له «مجتمعنا الديني» في مواجهة «هجوم الثقافة الغربية» المتزايد،

واسع النطاق، شديد القوة، مقتلع الجذور؛ وذلك لأن مجتمعنا ذو روح تقليدية وقيم موروثة وإيمان تلقيني غير واع، في حين أن الثقافة الغربية ذات روح خلاقة للجديد، وقيم عقلية وإلحاد علمي ووعي مادي، وحياة واقعية ورؤية دينية بورجوازية نزّاعة إلى اللذة، وعصيان لكل القيود الأخلاقية والدينية التي تكبح جماح الفرد وفلسفة «مبدئية الحياة» و«أصالة الاستهلاك» والقدرة والحركة والتقدم المادي. . وذلك لأني كنت أرى أن المذهب الموجود قد تحول إلى قوالب ذهنية متحجرة يحفظها فحسب التوارث الأسري والتقليد الاجتماعي والتلقينات البيئية وأن أسسه العلمية والفكرية التي تعتبر بمثابة المخ بالنسبة له قد فقدت حماسها وحيويتها السابقة، والإسلام الذي كان يقظة وحركة وتجديداً عقليّاً وعلمياً متدافعاً، وكان يتقدم العصر ويقوده في الطريق ويسبق الحوادث ويجعلها ردفه، قد صار الآن بين جماهير أتباعه مجموعة من الأشياء غير المتناسقة، لا اتجاه لها، مكون من قدر من «المقدسات العاطفية» و«المعتقدات الذهنية»، إلى جوار بعض الأعمال والرسوم والشعائر بقيت كلها على شكل «تحكم» و«تعبد». . وبينما هو على هذا الحال، هاجمه من الآفاق البعيدة المجهولة خصم فتي ذكي باحث عن السلطة، مستحوذ على العالم ومجهز أيضاً بالعلم والتقنية والفلسفة والآداب والفنون والقوة الاقتصادية العظيمة والتجارب وألوان النجاح التاريخي العديدة في طرد قدرة الدين وسلبها، علاوة على أن يده في يد الاستعمار الغربي القوية ذات الحقد القديم على الإسلام، وهو يجاهد في إزاحته عن طريقه. .

لكي يمهد الطريق لدخوله واستقراره في المجتمعات الإسلامية، ذلك أن كل من عرف الإسلام وكان ذا وعي بالتاريخ والاستعمار الغربي، وأطلع باحثاً في تاريخ القرنين الأخيرين بشكل علمي، يعلم أن الإسلام طوال وجوده التاريخي قد بين أن لديه الاستعداد لإيقاظ المجتمع النائم الراكد ومنحه الحركة، وتزويده الأمم التي اعتادت الضعف والمسكنة بالعزة والقوة، وأنه إلى جوار كونه إحساساً دينياً وإيماناً قلبياً وعقائدياً «ثقافة غنية متجددة ذات جذور» وهو أعظم عقبة أمام تنفيذ مشروع الاستعمار الثقافي، وهو جعل المجتمع التقدمي أجوف ومحو الثقافة عن مفكرينا الذين ينبغي أن يصبحوا، في مواجهة الإستعمار الفكري وسلطته العقائدية والتقنية، فارغي الأيدي ومعدومي المقاومة وفاقدي الأصالة التاريخية والشخصية الإنسانية المستقلة القائمة بذاتها والاستقلال الروحي.. حتى يستولي عليهم هادئين مروضين.. ولا تكون لديهم بطاقة هوية ثقافية.

ومن هنا.. فأنا موجود هنا لا بالضرورة الفكرية، أو عن طريق قراءة الأشعار والمسرحيات وترجمات هذه الأعمال الأدبية والفنية الطليعية، أو عن طريق الجدليات والمناقشات في المجالس الخاصة «للمثقفين الملتزمين» بل لأنني كنت ـ وما زلت ـ من قلب الناس العاديين في المجتمع، وارتبطت بهم بعدة أواصر، وذلك الذي يفكر فيه المفكرون والكتّاب والعلماء والمنظرون ويفهمونه.. جربته أنا في أعماق ضمير المجتمع، وما يعد بالنسبة لهم من قبيل المفاهيم العلمية والذهنية والنظرية، قد لمسته أنا

بجلدي ولحمي كالأمي، وعشت تلك العينيات والواقعيات الاجتماعية والتطورات الفكرية، ولدي علم حضوري بلا واسطة بما يجري في زماني وفي بيئتي، كما أن لدي حضوراً أيضاً في الصدام ذي الشقين بين ثقافة اليوم ودين الأمس، وفيما يتعلق بالدين التقليدي الموجود ومصيره في مواجهة هجوم الاستعمار الثقافي والنقلات الاجتماعية وسيطرة الرؤية المادية والروح البورجوازية لدي علمٌ أيضاً. وأعلم أن الطبقة المتعلمة عندنا، وأن جوَّنا الفكري وجيلنا الجديد يبتعدون عن الدين، ومنذ متى وكيف، وفي النهاية لصالح أية سلطات وتكتلات.. وإنهم يبتعدون بخاصة عن الإسلام ويغتربون عن التشيع ويفرون منه بعقدة كراهية وخصومة إلى أقصى ما يستطيعون من أماكن.. وإلى أي جحر يلجأون وفي أي فخ يسقطون وهم على وعي تام.

وليست هذه الخصائص فحسب هي التي تعطيني الحق في الإدلاء برأي بشأن مصير الدين في المجتمع، ودور الاستعمار الثقافي والاستبداد الديني في زعزعة القواعد الاجتماعية للدين والظروف التي تبعد مسيرة حركة العصر عن الدين، بل إني قد خصصت فرع دراستي والأرضية الأساسية لأبحاثي ودراساتي العلمية، بل وبرامج تدريسي لتقييم نفس هذه القضايا ومعرفتها معرفة علمية. كما أن دراساتي في تاريخ الحضارة وعلم الاجتماع الديني وتاريخ الأديان، والمعرفة الناتجة عن الدراسة الدائمة للحركات الفكرية والثورات الاجتماعية في القرنين الأخيرين، وبخاصة الانتفاضات المعادية للاستعمار في العالم الثالث ومعرفة

الأيديولوجيات المعاصرة، وفوق كل ذلك معرفة تاريخ الإسلام وقضية الاستعمار في المجتمعات الإسلامية، والتطورات والحركات السياسية والفكرية والاجتماعية الكثيرة التي حدثت في قلب هذه الشريحة الاجتماعية التي أنتمي إليها، كل هذه الأمور تعطيني حقاً أكثر في أن أتحدث عن مفكري مجتمعي ومواقفهم الاجتماعية والثقافية في مواجهة الدين، وموقفهم على الخصوص بالنسبة للإسلام وتصورهم الواقعي عن التشيع. . كما أنكم أيضاً تعطونني هذا الحق، وهو أن أتحدث كخبير عن أمور الدين الذي هو إيمانكم، وعن المتعلمين وهم الجيل المتصل بكم، وعن المجتمع الذي تعيشون فيه وتحملون مسؤوليته. . وينبغي أن تكونوا على وعي وعلى معرفة صحيحة وعلمية به، وأن أعرض تجاربي ونتيجة دراساتي دون تقية أو مواربة أو إخفاء ناتج عن المصلحة أو الحرص على الشعبية.

وقد دفعتني مجموعة هذه الظروف إلى أن أصرخ كل هذا الصراخ، وألا أستطيع أن أفهم نصح الناصحين المثقفين والعقلاء والمتميزين بالحصافة الذين يقولون: «على الإنسان أن يتحدث بشكل يعجب به كل الناس».

استمعوا إلى ما أقول، وأنا لا أريد منكم أن تقبلوا كل ما أقوله يكفيكم أن تعلموا أني: أولاً: ولتلك الأسباب التي ذكرتها لكم عن نفسي لدي الحق في الحديث عن هذه الأمور وعندي أيضاً الدراسة والتخصص والخبرة العلمية، وثانياً لنفس هذه الأسباب التي ترونها سوف أتحدث على خلاف كل المصالح، ومن ثم وإن

ما أقدمه من حديث إنما هو من أجل الحقيقة فحسب، وإن لم يكن رأيي صحيحاً فنيتي سليمة، وصرختي هي نتيجة لإحساس بالمسؤولية والألم.

استمعوا إلى كلامي متمثلين الآية الكريمة ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾ وبعدها يؤيدون ما يكون أصدق وأكثر وزناً وعقلانية ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمْ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾(١).. لقد جئت ممثلاً عن هذه الطبقة المتعلمة الملحدة، لأقول لكم: إنها ليست ملحدة وغريبة عن دينكم فحسب.. لكنها في ضيق ونفور وتحسّ بعقدة بالنسبة للدين، هاربة منه تلجأ إلى أية مدرسة أخرى أو شعار آخر أو فلسفة أخرى، وتتوسل بها خوفاً من مذهبكم. جئت ممثلاً عن هذه الجماعة لأقول لكم: أنتم المسؤولون عن مذهبكم وإيمانكم وعصركم وأسركم ومجتمعكم.. لماذا أنا ضائق بكم أنا ورهطي؟. لماذا اغتربت عنكم وصرتم أنتم أيضاً غرباء عنا بحيث لا تستطيعون أن تتبادلوا معاً كلمة واحدة؟ أقول للأمهات: لماذا لا يستطيع بناتكن أن يتبادلن معكن كلمة واحدة كما أنكن أيضاً لا تستطعن أن تتبادلن معهن كلمة واحدة؟! إنكنّ تتحدثن بلغتين مختلفتين وتتنفسن في جوين مختلفين، فلا هن بالنسبة لكن مستمعات منصتات مطيعات ولا أنتن بالنسبة لهن ناصحات منطقيات مهمات.. وأقول للآباء لقد فر أبناؤكم منكم لا لفساد أخلاقي عندهم، بل لأسباب

---

(١) سورة الزمر، الآية: ١٧ ـ ١٨.

وعلل فكرية وعقائدية، صاروا غرباء عنكم، وأيضاً أصبح بكم كمؤمنين اليوم بالإسلام والتشيع، وكأناس احتفظتم بالدين والإيمان في عصر اللادين واللاإيمان، وتدعون المحافظة على العقيدة والعمل بتعاليم الدين، وبناء على هذا تحسون بمسؤولية كونكم شيعة وكونكم مسلمين وكونكم متدينين، ويقول لكم القرآن الكريم صراحة أن عليكم السعي في سبيل نجاتكم ونجاة أهليكم وأبنائكم.

﴿قُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ وَأَهۡلِيكُمۡ نَارٗا﴾[1].

أجل، لقد جئت لكي أخبركم بهذه النار التي أمسكت بأفكاركم وإيمانكم. أقول لكم لماذا تزلزل دينكم وإيمانكم ومذهبكم، ولماذا أصبح من الصعب عليكم أن تحتفظوا به؟ ولماذا تصبحون في كل جيل وكل لحظة أكثر انفراداً وأشد ضعفاً؟ ولماذا تتقهقرون في مواجهة هجوم فكر القرن وروح القرن؟ وتحسون أنفسكم عاجزين ولا تصل أذهانكم إلى حل من أجل الإصلاح.. إصلاح هذا الجيل وإصلاح هذا العصر إلا الدعاء!

نحن متهمون!

إنني إذا كنت أتلقى في اليوم عشرة خطابات، تحتوي على عشرين أو ثلاثين اعتراضاً، فإن خمسة منها ـ من هذه الخطابات ـ

---

(١) سورة التحريم، الآية: ٦.

هي من مؤمنين يعترضون عليّ قائلين: «لماذا قلت: إن رسول الله ﷺ عندما جاء إلى المسجد.. قلت. إنه كان سعيداً؛ لأنه رأى المسلمين قد حفظوا وحدتهم في غيابه؟!» وفي موضع آخر أقول من هذا القبيل عن «تربة»[1] الصلاة، وفي خطاب ثالث: لقد قلت كذا عن كتاب المفتاح.. نصف الخطابات يحتوي على اعتراضات من هذا القبيل.. لكن الاعتراضات الخمسة والعشرين الباقية تحتوي على هذا الاعتراض القائل إنك تخون العلم وتخون المفكرين باستنادك وتركيزك على المذهب.. وأنا مهتم بمن يوجهون هذا الاعتراض؛ لأنني مسؤول أمام هذه الطبقة، فهذه الطبقة هي التي تصنع اليوم وغداً فكر هذا المجتمع وثقافته واعتقاده، بل وتصنع المجتمع نفسه.. لأن من هؤلاء الكاتب والمفكر والأديب والطبيب والمهندس، هم مظهر هذا المجتمع وهذا العصر، وليس لي مع أولئك الذين يعيشون الآن باسم الدين.. ولهم السلطة والنفوذ والرسمية أية آصرة طبقية أو اجتماعية.. لا أحس بقلق أو تخوف إن خالفوني أو وافقوني.. لا شيء عندي يأخذونه، ولا أريد شيئاً يجعلهم يهتمون بي أو يؤيدونني.. ولا أنا أتعيّش عن طريق الدين بحيث ينقطع عيشي، ولا أنا من أهل المنبر، ولا المحراب.. ولا أرتدي كسوة رجال الدين ولا أتبوأ منصباً دينياً.. وليس هناك تشخّص وتميّز مذهبي لدي.. كما أنني لا أبحث عن المريدين المؤيدين الأغنياء.

---

(١) المقصود تلك القطعة من الحجر أو المدر ويفضل أن تكون من تراب أرض مقدسة ليسجد عليها المصلي. (المترجم).

إنني أتحدث في هذا المجتمع كمسؤول عن طائفتي وعن الجناح الذي أنتمي إليه، وإذا كنت آتي إليكم وأحضر مجالسكم ولي شأن بمعتقداتكم ومراسمكم، فقد أتيت ممثلاً عنهم، أتيت لأقول كل شيء ضاع.. كل شيء يضيع.. بأي شيء تشغلون أنفسكم؟!

يقول الإمام علي عليه السلام: «لبئس لعمرو الله سعر نار الحرب أنتم، تكادون ولا تكيدون. وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون، لا يُنام عنكم وأنتم في غفلة ساهون. غلب والله المتخاذلون»[1].

أجل إن خمسة وعشرين (من ثلاثين) من الاعتراضات والانتقادات التي توجه إليّ هي من هذا القبيل: «إنك كمتعلم عصري ومفكر وكاتب منتم إلى هذا الجيل.. لماذا توقف كل همتك وقدرتك وقلمك وفكرك بل وعلمك من أجل الدفاع عن الدين وتفسيره وتبريره.. وفي هذا الجيل؟! وفي هذا العصر؟! إن هذه خيانة لهذا الجيل ولهذا العصر».

وهناك تلميذ سابق لي يعد الآن من الكتاب والفنانين العصريين، كتب إلى صديقه وهو أحد معارفي: «خسارة بالنسبة لشريعتي أن تكون أفكاره دينية.. وإلا لأصبح صنم المفكرين عندنا» هذه هي تهمتي أمام رهطي.. وفي جوي وطبقتي، وأنا

(١) المترجم: معظم النصوص المنقولة من نهج البلاغة هنا أوردها المؤلف بمعانيها وعدت إليها في النص الأصلي العربي. والنص هنا من الخطبة رقم ٣٤ من المجلد الأول لنهج البلاغة شرح حسن تميم ص٤٠٧ (بيروت ١٩٦٣).

أفكر بجدية في هذا الاتهام وأعمل تفكيري، وليس لكونه صادراً عنهم، فلا شأن لهم بي ولا شأن لي بهم. . لقد جئت لكي أتحدث عن اتهامات الجماعة المكونة من أبنائكم وبناتكم إليكم أنفسكم واقبلوني ممثلاً لهم؛ لأنني لست شريكاً لهم في فكر لكي أتحدث لصالحهم وطبقاً لمعتقداتهم، ولا أنتمي إلى طبقتكم حتى أتحدث لصالحكم ولصالح الأوضاع والأحوال هنا. . وها أنتم ترون أن حصافتي دفعتني في النهاية إلى اختيار طريق واختيار لغة تثير عليّ كلتا الطبقتين: الطبقة الدينية الرسمية وطبقة المفكرين الرسمية، وكلتاهما تعتبراني على باطل، ومن نفس هذا المنطق فهمت أنه ربما أكون على حق، وربما أنطق بالصدق؛ لأنه إذا أراد أحد اليوم أن يتبع[١] علياً عليه السلام بصدق فإنه يبقى وحيداً، يقاتله على السواء أعداء الدين والمتعصبون الجامدون له، وباسم الدفاع عن الدين يسلون سيوفهم في وجهه كما فعلوا، وقد رأيتم هذا وقرأتموه في التاريخ.

في العام الماضي ذهبت إلى مكة للحديث في مؤتمر إسلامي دولي، وسلمت متن بحثي، فردوه إلَيَّ قائلين: «هذا غلو في التشيع»، والمتشيع المغالي أي المتطرف هو الشيعي الذي يفرط في شأن علي، وعندما قالوا لي: إنني من غلاة الشيعة ومن «عبّاد علي» في المملكة العربية السعودية منعوني من المشاركة في المؤتمر

---

(١) الأتباع الحقيقي لعلي وطريقته ونمط فكره لا عبادة علي، لكن ما هو موجود في الحياة والمجتمع ونمط التفكير والعمل جاوز الخونة الأمويين ومتعصبي خوارج النهروان.

الإسلامي، فحمدت الله أن ساقني إلى طريق أُتهم به في إيران بأني من أهل السنة وفي السعودية بأنني من غلاة الشيعة، على كل حال إن لم يكن طريقي صحيحاً فهو على الأقل أقرب إلى الحقيقة من طريق أولئك الذين اعتادوا على الأكل سواءٌ من الخرج أو من المزود. . هو الطريق الذي أعلم أنني سأجاهد فيه طوال حياتي، وسوف أضحي بحياتي في سبيله لا كـ«صنم مفكرين» في ذلك الجناح لأصبح شيئاً أو لأحصل على شيء. . ولا كوجه ديني ومذهبي. . إنني أفقد الاثنين كليهما. . ولا أُريد من هذا الفقدان المزدوج أن أظفر بشيء. . الشيء الذي أريده!

قلت: نحن متهمون! متهمون من قِبَل الجيل الذي برىء من الدين أو يبرأ منه على وجه السرعة. . وهناك حقيقة تقول: إنَّ أيَ إنسان مهما كان غافلاً عن الدنيا، فإنه داخل منزله أمام الإذاعة المرئية وإلى جوار المدفأة القديمة أو الحديثة، وفي زاوية حياته الخالية قد أحس ـ كل إنسان منكم على أي مستوى كان. . منكم كجماعة لا كأفراد تأتون إلى هذا المكان. . لأن أغلبية الذين هنا يشاركونني في الألم، وعلى حد قول الجامي[١] «إن المشارك في الألم، هو الذي يعلم ألم من يشاركه في الألم». . أحس كل إنسان منكم أنه عندما أرسل ابنه إلى المدرسة، وعندما أرسل ابنته إلى المدرسة، أي الجيل الذي بعده والذي له به صلة عائلة أو صلة قرابة، لم يحس فحسب بل يرى ويفهم أن هذا الجيل يزيد عنه بعداً

---

(١) عبد الرحمن الجامي شاعر ومتصوف إيراني شهير. . ومترجم لبعض أعمال ابن الفارض. . يعده الباحثون آخر الكلاسيكيين العظام. . توفي سنة ٨٩٨هـ. المترجم.

يوماً بعد يوم، إنه لا تفاهم بينهما بعد . . وكل يوم يصبح الوالدن المتدينان ألعوبة ومجال سخرية من ولدهما الذي صار مفكراً . . هذا أمر مسلم به .

خطآن فظيعان وخطأ شائع:

أيتها السيدات، أيها السادة: نفس ابنكم هذا أو ابنتكم . . هذان اللذان تتهمونهما بالفساد وعدم المبالاة والانحراف الفكري . . أي أنهما لا يستطيعان أن يفهما الحقيقة بنفس القدر الذي تفهمانه به . . وهذا من الأخطاء الشائعة عند الآباء والأمهات . . والرأي الشائع أن النساء أقل من الرجال في ملكة التفكير . . وأن الشباب أقل منهما من الشيوخ، فالسيّد فلان ـ الذي يتميز فحسب من كل الخصائص الإنسانية والمميزات الفكرية ـ والأخلاقية بأنه مذكر ـ يعطي نفسه الحق في أن يشترك في جلسة علمية، ليس مجرد مشاركة بل يقود ويلقي الأوامر ويصدر الأحكام القاطعة ونفس هذا السيّد لا يعتبر كل النساء جديرات بالاشتراك في جلسة دينية أو علمية، وذلك دون أن يراهن أو يعرفهن أو يفهم أي شيء عنهن، وذلك لمجرد الجرم والنقيصة اللاصقة بهن وهي أنهن إناث، ولا يعطيهن حتى حق المشاركة السلبية في بحث أو درس أو الاستماع إليه . . حتى ولو كان ذلك السيّد تاجراً وكانت تلك الأنثى طالبة جامعية أو مدرسة في الثانوي أو طبيبة . . لكن ما دام الحديث يدور حول الدين . . وما دام المجلس دينياً، ولأنهم من المؤمنين الذكور، فإنهم يحسون بأنفسهم أصحاب حق، وأصحاب فهم أكثر من كل النساء في المجتمع . . وكأن الإسلام والمذهب قضية

«رجالية» في الأصل وبدون إذنهم، فإن النساء مهما كنَّ أكثر فهماً منه وأكثر تعلماً فلا حق لهن أن يستمعن بشكل مباشر ويفهمن ويخترن، في دين نساء عليهن أن يقبعن في منازلهن مركزات أعينهن على لحية «جناب السيّد» منتظرات منه ماذا يتفضل به بشأن مسؤوليتهن الدينية ونوع عقيدتهن وفكرهن!!

وهناك خطأ آخر وهو أن الشيوخ ـ ولأنهم شيوخ فحسب ـ يحسون بأنفسهم أكثر فهماً من الشباب لأنهم شباب فحسب، ويعتبرون أنفسهم أصحاب الفتوى بالنسبة لهم مهما كان جناب الحاج أو الكربلائي[1] يعرف من الآداب السياق فحسب، ومن الرياضيات حساب الحاسبة الروسية ذات الخرز، ويحفظ من العلوم الإسلامية بضع رسالة من الرسائل التي تتلى في الزيارات.. هذا فحسب يكفيه لكي يعتبر نفسه أعلى مستوى من ابنه أو ابنته ـ حتى وإن كانت طالبة جامعية أو كان ابنه طالباً في الدراسات العليا ـ ويحسب نفسه أكثر عمقاً وأرجح تفكيراً وأغزر علماً بالحقائق.. لقد رأيت كثيراً وسمعت حتى بالنسبة لرجال مستنيرين، وأحياناً علماء يبدون رأيهم في الكتب والدروس والأبحاث والمحاضرات المرتبطة بالجيل الشاب والمتعلم الجامعي أو تكون مجال اهتمام عند هذا الجيل.. ويعلقون عليها بلهجة متعالية «جيدة.. لكنها مفيدة فحسب لهؤلاء الشباب ونمط الطلاب الجامعيين وأمثالهم».

---

(١) الكربلائي.. لقب يطلق على من زار كربلاء ولها صيغ عديدة في اللغة الفارسية منها كربلائي وكبلائي.. وتطلق تكريماً على من لم يزر بين القوم. المترجم.

وهؤلاء أنفسهم يشتركون في المجالس العادية العامية والمكررة والتقليدية، ذات الخطب المثيرة للشجن والانفعال والحماس والتي تستوجب الثواب. تلك المجالس التي يُدعى إليها رجال محترمون لهم وزنهم ولهم اسمهم في السوق، واعتبارهم في البنك واحترامهم وحيثيتهم في الحي، ويعبرون عن برامج هذه المجالس بقولهم: «إنها جدية.. مستواها مرتفع وأصيلة»!!

هؤلاء، يلتبس عليهم أمران ـ لا علاقة لأحدهما بالآخر ـ امتلاك النفوذ وامتلاك الشعور والإحساس، وكون الإنسان متقدماً في السن وكونه متفهماً.. فأي فهم لذلك الإنسان المحترم صاحب الإسم والرسم والأسرة العريقة والأسهم والسندات والاعتبار وغيره.. أي فهم عنده في مبحث علمي أو نظرية عقائدية أو مسألة دينية.. ولأي سبب لا يكون لدى تلميذ ثانوي، يأخذ مصروفه الأسبوعي من والده الحبيب، أو فتاة طالبة جامعية، تتلقى «العُلق» من والدها الحاج، جدارة واستعداد فكري وعلمي أكثر؟!

وهؤلاء لأنهم: أولاً: شخصيات محترمة في المجتمع وتجار محترمون في السوق، وثانياً: لأن أولادهم.. أو الشباب الأصغر سناً في عائلاتهم حتى وإذا كانوا طلاباً جامعيين أو متعلمين، يعتبرون في المنزل وفي الأسرة من قبيل «العيال» و«الأصغر سناً» و«المفلسين». ففي المجتمع، من حق الجيل القديم والنمط السوقي أن ينظرا إلى كل الجيل الشاب وجماعة الطلاب والمتعلمين في المجتمع بنفس العين، وفي الغالب فإن المتحدثين في الدين والمجتمع يدعمون هذا الخطأ الكاذب ويتحدثون بما

يعجب هؤلاء السادة الحجاج. وما يهمهم لا يهم «الولد» الجامعي ابن السيّد الحاج، ولا يقولون بصراحة ووضوح وبلا مواربة: يا جناب الحاج! يا صاحب السعادة المحترم المتدين ذا الحيثية؛ لكن لا علم لديك.. قدمكم على أناسي عيوننا.. مقامكم فوق رؤوسنا! لكنك عامي.. ونفس هذه البنت الضئيلة.. أو ولدكم الذي يبلغ طوله أربعة أشبار وكان حتى أول أمس يحدث في سرواله يفهم اليوم أكثر منك يا جناب الحاج، وأنت أيضاً يا جناب الحاجة! حقيقة أنكما علمتماه الكلام والمشي، لكنه الآن أكثر تمييزاً منكما بالنسبة للكلام العلمي والطريق الاجتماعي...حقيقة إن صاحب السعادة ترصد هذا الطفل في المنزل حتى تعلم الصلاة ومبادىء الدين المعقدة والطهارة والنجاسة والوضوء والغسل وكلّ شيء، لكنه الآن يقرأ أشياء أخرى ويفهم أشياء أخرى.. يقرأ ويفهم ويفكر ويريد وينتقد ويستدل ويعترض.. وهي أشياء لا أنت ولا حتى جدك السابع فهمتم عنها شيئاً! إنه يقرأ اليوم «جان بول سارتر» و«ماركس»[١] و«برخت»، فماذا لديك أنت أو كان لديك تعطيه إياه في مواجهة مستوى تفكيره والأفكار التي تتوارد على ذهنه؟ إنه يقرأ عن «الوجودية»، وفي الجامعة وداخل المكتبة وفي الندوات، عرف بلغته واللغات الأجنبية «كانت»[٢]

---

(١) كارل ماركس (١٨١٨ ـ ١٨٨٣) فيلسوف اجتماعي ألماني له رأس المال وهو دستور الماركسية والنظام الشيوعي. (المصحح).

(٢) إمانويل كانت: فيلسوف ألماني (١٧٢٤ ـ ١٨٠٤) من فلسفته أنه وضع العقل في صلب الوجود ومحوره، كما وضع كوبرنيك الشمس في وسط النظام الفلكي. (المصحح).

و«ديكارت»[١] و«هيجل»[٢] و«انجلز»[٣] وأنت تريد في مقابل هذا أن تعطيه «طوفان البكاء» و«محرق الفؤاد»[٤]. أي كتاب لديك تعطيه إياه بحيث يجذبه ويعرفه الدين بلسانه ومنطقه واحتياجه واحتياج عصره؟! إنه لا يستمع إلى كلامك؛ لأنه لا يقنعه ويتهمك قائلاً:

يا أبي.. يا أمي..

إن دينك ومذهبك وكل الأعمال التي تقوم بها باسم الدين والمذهب وكل ما لديك من عقائد باسم الدين والمذهب كلها بلا فائدة وعبث، إنهم يتهمونك قائلين: «إنك تؤمن بالدين، ودينك عبارة عن قوة تجعلك غافلاً عن الدنيا وعما قبل الموت، وتجعل كل همك وخوفك وسعيك ووسواسك ومسؤوليتك وجهدك وقفاً على الموت وعلى ما بعد الموت.. وأنا كشاب ومفكر ومتعلم عصري أهتم بما قبل الموت، لكن دينك لم يحدثني عن شيء قط

---

(١) رنيه ديكارت (١٥٩٠ ـ ١٦٥٠): فيلسوف ورياضي وفيزيائي فرنسي نسّق رموز الجبر ووضع القواعد الأساسية للمعادلات وابتكر الهندسة التحليلية. استنتج وجود الله من مجرّد تصورنا لكماله الإلهي، صاحب المبدأ القائل: «أنا أفكّر إذاً أنا موجود». (المصحح).

(٢) فروديل هيجل (١٧٧٠ ـ ١٨٣١) فيلسوف ألماني: قال إن الكائن والفكر شيء واحد هو الفكرة، والفكرة تتطور على مراحل: الإثبات ثم النقض ثم الخلاصة.

(٣) فردريك إنجلز (١٨٢٠ ـ ١٨٩٥) فيلسوف ألماني وضع مع ماركس «البيان الشيوعي» ونشر كتاب «رأس المال» بعد موت مؤلفه ماركس.

(٤) طوفان البكاء كتاب في سير آل البيت التي اصطلح على تسميتها بالروضة .وهو من تأليف ميرزا محمد إبراهيم الجوهري المتوفي سنة ١٢٥٢هـ. معنى: ومحرق الفؤاد كتاب من كتب الروضة أيضاً.

يتعلق بما قبل الموت. . ولم يحدثك أنت أيضاً. . كما أنك لا تعلم شيئاً. . إنك تقول: إن كل معتقداتي وأعمالي الدينية تنفع فحسب حين أُجيب منكر ونكير عندما أضع رأسي في القبر على لبنة اللحد وترابه. . سوف تتضح فوائدها آنذاك. . وأحصل في النهاية على ما قدمت يداي في الدنيا. . أقول: هذا حقيقي لكن بالنسبة لما قبل الموت حيث تقتلع أرواحنا في مذلة وفقر وحاجة. . أي شيء عند دينك بالنسبة لهذا؟! لا شيء. . إنك تحترق في النار وأهلك يحترقون في النار. . وأصلك وعرقك وسكان العالم والبشر كلهم يحترقون في نار الحياة. . وأنت لا تحس حتى بالحرارة. . وكل لياليك وأيامك بكاء واضطراب من مجرد تصور لهب نار القيامة وعذاب ما بعد الموت لكني اكتوي بهذه النار التي نشبت في البشرية الآن. . أنا وأنت والآخرون وجميع الناس تحترق بها. . وأنا كل اهتمامي وبحثي منصب على أن أجد شيئاً يطفىء هذا اللهب وماءً يخمده!!

أبي. . أمي.

رأيتكما في خلوتكما المخلصة. . رأيتك ـ يا أبي ـ تدعو بكل وجودك وإيمانك وإخلاصك. . تنادي الله والرسول والكتاب والأئمة وكل مقدساتك. . وتناجيهم قائلاً: «إلهي نجني. . إلهي سلمني. . هبني العافية في حياتي. . وفي ديني، واشف مرضاي. . وردّ عليَّ غائبي بالسلامة. . واغفر لموتاي. . وأعني عندما يدلي بدني في قبري ونجني من نار الغضب والعذاب. . واحشرني في الجنة مع الصديقين والأولياء».

أبي: من أي نوع دينك هذا آخر الأمر؟! إذا كان من تربى على يديه لا يتحدث عن البشرية، ولا يتحدث عن المجتمع وحياة البشر، ليس هذا فحسب، بل إنه لا يتحدث حتى عن ابنه إلا إذا أضافه إلى نفسه كل همه «أنا». . هنا «أنا» و«هناك أنا»! وعلى هذا الدين أن ينجيك أنت فحسب، وأنا أبحث عن دين وإيمان ينجي البشرية، وأكون أنا نفسي فداءً له. . دين يسعى لخلاص المجتمع ويجعل الفرد قرباناً للجماعة(١). .

أبي. . أمي.

إنني أختلف عنك كثيراً، فالإله الذي تفكر فيه أنت وأمثالك وتصنعونه إله يتكفل بمسؤولياتكم ومطالبكم. وكل مسؤولياتك الإنسانية في هذا العالم وفي المجتمع وتجاه الناس، وأنت بالإنفاق والنذور والضراعة التي توجهها إلى هذا الإله ترى نفسك معافى من عواقب كل جريمة وكل جناية. . تماماً مثل حياتك في المجتمع. . كلما تعطلت أمورك. . تحتال بوضع قانون الضرائب، ويأتيك حكم قضائي وقانوني من المحكمة، فتقابل هذا، وتتملق ذاك، وتتصل بالهاتف، وتدفع رشوة، وتقيم وليمة، و«تخلق» واسطة! وفي دينك تقوم أيضاً بكل هذه الأمور، وكما تتوسل في حياتك بالولائم والحيل وذوي السلطة والنفوذ والأقارب والأصدقاء الحميمين والأهل اللاصقين. . لجناب الوالي أو القاضي ولا يردك

---

(١) يذكرني هذا الدعاء والتضرع بالعارف الذي كان يدعو قائلاً: «إلهي إذا كنت سوف تدخلني النار. . فاجعل جسدي ضخماً بحيث يملأ جهنم كلها فلا يبقى فيها مكان لمذنب» انظروا إلى أي مدى تغيرت معنويات الإسلام وأفكار المسلمين.

قانون عن «قذارة» أو جريمة أو اغتيال حقوق أو أكل مال الناس أو الخيانة والخروج على القانون، فإنك أيضاً عن طريق الشفاعة وجلب محبة أحد المقربين إلى حاشية سلطان الكائنات ونظره!! تود أن يغفر لك ولا يمنعك دينك في الدنيا عن خطأ وذنب تؤمن تماماً أن دينك ينهاك عن..

إذن.. أبي.. أمي، هذه هي مسيرة الدين الذي تدلني عليه، وأنا لا أريد أن أكون في هذه الدنيا سجيناً أسيراً شقياً، أريد أن أكون عزيزاً مرفوع الرأس.. إن هذا الكفر الذي تحدثونني عنه يعطيني الحرية في هذه الدنيا والعزة والسعادة والجنة، وأنا أفضله عن دينكم الذي يستوجب السجن والأسر والشقاء والفقر، ويوصي بها.. هيا.. اشتم، وارغِ.. وازبد.. والعن!!

الرؤية الكونية البطنية:

إن القضاء والقدر الذي تؤمنان به يقول: إن كل عمل يحدث، وكل إنسان يقوم بعمل ما، كل سوط يضربه ساعد ويرن على كاهل، وكل مال يسلب وينهب، وكل ظلم يرتكبه أناس وينزل على أناس آخرين، كله مكتوب من قبل أن تخلق أنت، ومن قبل أن أخلق أنا.. إنه لا يتغير.. ومن ثم لا يستطيع المجرم إلا أن يرتكب الجرم، ولا يستطيع الضحية إلا أن يكون ضحية.. ولا يستطيع المذنب أن يكون طاهراً، كما لا يستطيع الطاهر أن يذنب! ومن هنا فكل ما كان وما هو كائن وما سيكون.. لا هو بيدي ولا هو بيدك.. ومن هنا أيضاً لا الجاني مجرم، ولا المجني عليه

مقصر، وفي الفقر لا النهّاب مجرم ولا المنهوب مأجور! وفي المذابح لا ذلك الذي يمتص الدم مجرم.. ولا ذلك الذي يُمتص دمه بصاحب حق. في نظام جبري قطعي غير قابل للتغيير: فإرادتي وإرادتك ومسؤوليتي ومسؤوليتك، والاختيار بين أن تكون جانياً أو مجنياً عليه، فمصير الظالم ومصير المظلوم كله مسجل هناك من قبل، ونحن معلقون بتنفيذ إرادة موجودة قبل وجودنا ومجبرون على رؤية ما خط على جبهاتنا.. لكني خلصت نفسي من هذا الإطار الجبري الذي حبست فيه الإرادة والمسؤولية الإنسانية، ورحت أبحث عن فكر أو مدرسة فكرية أو فلسفة تعتبر الإنسان مسؤولاً عن مصيره، أو ذهبت أساساً في أثر اللااعتقاد واللامبالاة والعدمية.. إذا كان الله يفعل كل ما يحلو له، فأنا أيضاً أفعل كل ما يحلو لي، ما دمت تقول: إن الإنسان في كل ما يفعله إنما ينفذ مشيئة الله.. وأن الله قد شاء.. فإذا كان الجبر الإلهي صحيحاً لكانت القيود الأخلاقية بلا معنى، إذا كان كل شيء جبراً فكل إنسان حر.. ألست أنت الذي تروي نقلاً عن الرسولﷺ «السعيد سعيد في بطن أمه، والشقي شقي في بطن أمه»؟ احكم بالغدل يا أبي، احكمي بالعدل يا أمي.. إن رؤيتك الكونية هي الرؤية الكونية البطنية، أما البشرية والأخلاق والإرادة والمسؤولية والخير والشر والعمل والفكر والمصير والسيرة والجهاد والجناية والخدمة والخيانة.. كلها عبث.. كلها متعلقة ببطوننا، وإني لأتعجب: لماذا تمدح شجاعة علي؟! ولماذا تبكي على استشهاد الحسين؟ ولماذا تغضب من قسوة شمر؟! هل قاتل الحسين هو شمر.. أو

هو والعياذ بالله الله. . أترى من أين ينبع دينك ويطل برأسه. . إنه يضر بالخلق وبالله. . إنه ينفع «شمر» فحسب!!

وهكذا كان يا أبي أن تركت إيمانك «البطني» وصرت «وجودياً». . اعتقدت أني أستطيع أن أصنع مصيري ومصير مجتمعي! مقدرتي في يدي وطوع إرادتي وباختياري. . وآمنت «بسارتر» ذلك الذي يقول: وحتى ذلك الذي يولد مشلولاً. . إن لم يصبح بطلاً رياضياً فهو المسؤول، انظر إلى أي مدى تدل هذه العبارة على إرادة الإنسان وحريته؟ هذا هو نمط فكر سارتر المادي اللاديني، وتلك هي رؤيتك أيها الروحاني الديني!!

دين «لا»:

لقد أعطيتماني دين «لا» يا أبي. . . ويا أمي. . وكنت ابنتكما: الطرق التي دللتماني عليها. . المقترحات التي قمتما بتقديمها إليّ، شكل الحياة والقيم الأخلاقية التي قمتما بإبدائها لي هي: لا تذهبي، لا تفعلي، لا تنظري، لا تقولي، لا تفهمي، لا تحسي، لا تكتبي، لا تقرئي، لا. . لا. . لا. .!! كلها صارت مناهي. . وأنا أبحث عن دين يقول: نعم. . يدلني على ما أفعله. . وعلى ما أقرأه. . وعلى ما أفهمه!!

يقول أحد الكتّاب: «ويل لدين تكون مناهيه أكثر من أوامره» لكني لم أسمع منك «نعم» مرة واحدة!!

أبي. . أمي. . ويا من أنت أكبر مني.

هناك كتاب تنزل من أجل «ألا يقرأ». . القرآن الذي تؤمن به ما جدواه لنا؟! أنا لا أعلم ماذا فيه. . وأنت أيضاً لا تعلم ماذا يوجد بين دفتيه! ومن هنا فأنا الكافر وأنت المؤمن كلانا يجلس في فصل دراسي واحد. . الفرق بيننا أن الكتاب لا يهمني. . إذا كان كتابٌ ما لا ينفع للقراءة فما جدواه وما نفعه؟ لكنك تلصقه دائماً بعينك وصدرك وجبينك وبقماط طفلك وعلى ساعد أخيك الأكبر وعلى وسادة مريضك. . ومبلغ علمي أن فائدة هذا الكتاب عندك تنحصر في هذا الأمر فحسب، وأنك كنت عندما تخرج من دارك كنت تنفخ بعدة آيات منه في قفل باب دارك. . وأنا سأشتري قفلاً متيناً حسن الصنع لا يحتاج في الأصل إلى النفخ! وأنت من أجل سلامتك وصيانة نفسك تنفخ بعبارات منه حول نفسك، أو تخيط وصفة منه فحسب ببطانة صدارتك أو تربطه حول عنقك أو حول عنق ثورك، وأنا سأذهب إلى الطبيب فأُطعّم وأخذ وصفة دواء، ومن هنا لا حاجة بي إلى «قرآنك»!!

إنك تستخدمه عند القيام بالاستخارة وبدلاً من «الاختيار» و«العزم» و«العمل» و«الحكم» و«الفهم» و«التفكير» فهذه هي أعمال الإنسان، وقيمة امتياز الإنسان تقوم عن طريق كتاب بنوع من الشعوذة والرمل أو التلاعب بالخطوط، وتجعل منه كأوراق اليانصيب و«اللوتو»، وأنا ابنك بالرغم من أنني لا أؤمن بالوحي، لست مستعداً لإهانة القرآن إلى هذا الحد، فهو «كتاب» على كل الأحوال. . ولا ألعب به، تماماً مثلما لا أهين العقل، فأنا استخدم عقلي بمساعدة العلم وشحذ الذهن والوعي والشعور والدراسة

واستشارة المطلعين المتخصصين والرجوع إليهم، وأفكر بشكل منطقي، ولو آمنت ذات يوم أن «قرآنك» كتاب هداية لقرأته، حتى أفهم عن طريق التفكير في تعاليمه وفهمها: الطريق الجيد، الطريق المقبول والطريق السيء في الحياة.. لا عن طريق الاستخارة.. ولفتحت عيني قبل أن أفتح دفتيه وأبحث عن موضوع ما لأرى ما الذي قاله بشأنه، لا أن أغمض عيني وأفتحهما على سبيل المصادفة والحظ لأرى ماذا كُتب في الآية أو الكلمة التي على رأس الصفحة اليمنى ثم أعزم طبقاً لها، وأحكم على قضية ما أو على إنسان ما!

أبي العزيز، إنني طالب، ولو قام أحد بمثل هذه الألاعيب مع «ملازمي» لنكدت عليه عيشه! ومن ثم فقد تركت الكتاب الذي لا يهم في القراءة حتى لو كان مؤلفه على حد قولك هو الله.. وبدلاً منه أمسكت بكتب تنفع للقراءة. لا تغضب!!

أبي.. أمي..

إن صلاتكما نوع من الرياضة التكرارية لا أثر فيها للأخلاق أو لتصحيح النية أو صحة العمل، بل ولا نتيجة صحية لها فإنتما تقومان بها صباحاً وظهراً وليلاً، لكن لا تفهمان معاني ألفاظها وأركانها، ولا تفهمان فلسفتها الحقيقية وهدفها الأساسي.. إنني أعرف تمريناً سويدياً أكثر علمية من حركاتكما الرياضية، إنه ينظم شكل ساعدي وقوامي ودورتي الدموية وتنفسي بل وحالة الهضم عندي، وأكرره كل صباح مع أشعار وهتافات جميلة وواضحة وموزونة تصحبها موسيقى جميلة تؤثر بعمق في وجداني

وأفكاري. . وبعد عشر سنوات من ممارسة هذه التجارب السويدية. . وممارستكما الصلاة. . أصبحت أنا إنساناً جميل القوام ورياضياً ونشطاً وسليم الجسد لكن واحدكما مهدم متداع. . أحواله لا تسر. . لو أمسك أحد بأنفك لطلعت روحك. . وهذه هي نتيجة كل عملك وصلاتك: إن ظهرك تقوس، وعلا الكنف (القشف) جبهتك الصافية والفرق بيني أنا غير المصلي وبينك أنت المصلي، إنني لا أملك علامتي التقوى هذين!

تعال لنتناقش معاً في الواقع، لنرى ماذا خسرنا وماذا كسبنا؟ إنك تقول: الصلاة حديث مع الله. . تخيل أحداً يخاطب أحداً لكنه هو نفسه لا يفهم ما يقول. . وكل جهده مصروف على أن يخرج الحروف والألفاظ من مخارجها الصحيحة بدقة ووسواس عجيبين، ولو لفظ عند الحديث الصاد سيناً لأصبح كلامه خطأ، لكن إن لم يفهم في الأصل ماذا يتلفظ به وماذا يقول لمخاطبه لا يصبح خطأ!! وفي كل تاريخ البشر أنتم فحسب الذين رأيتهم لا يزالون بتمرّس وإصرار وإخلاص يطلبون من أحد شيئاً أو أشياء لكنهم لا يعرفون ماذا يطلبون!! ولو أن أحداً أتى إليكم خمس مرات في اليوم، وفي كل مرة قام عدة مرات بمقدمات ومراسم دقيقة وحساسة، وطلب منكم شيئاً بالتماس وعجز وإصرار وضراعة وترون أنه وبوسوسة عجيبة يعبر عن رغبته الدائمة. . لكنه هو نفسه لا يفّهم ماذا يريد منكم. . فأي تأثير يمكن أن يطرأ عليكم؟! وماذا تعطونه؟! وعندما تنتبهون إلى أن هذا العمل قد أصبح عادة لديه أو أنه يقوم به كأداء واجب أو خوفاً منك فماذا تفعل؟! وماذا ينبغي عليك أن تفعل؟ ألا

تعطيه آذاناً بها وقر؟! وإذا كان الله سبحانه وتعالى لا يرضى عن الإنسان فاقد الإحساس، بل والإنسان الذي يمتلك مادة خاصة ضد الشعور، ينبغي عليه منذ الركعة الأولى في الصلاة أن يخرجه عن القبلة، عن عتبته ويقذف به بعيداً داخل أقبح مكان في العالم الثالث لكي يحمل الأثقال بين براثن الاستعمار كالدواب العجماء المطيعة.. ولا ينال حتى الشوك يأكله، ويشكر الله على نعمائه ويعيش في جهنم الدنيا على أمل جنة الآخرة، ويصبح في لهيب نار الذل والجهل والفقر «أبا لهب» وامرأته «حمالة الحطب»، ولو رحمه الله ونجاه حتى يظل كحمار الطاحون طوال عمره وحسب عادته يدور في دورانه الذي يؤدي إلى الهذيان والبلاهة.. ويظل يدور ويدور.. وفي غروب عمر حركته وفي طريقه يصل في «مذهب الدوار» هذا إلى نفس تلك النقطة التي كان قد بدأ منها في الصباح!! هو مغمض العينين لكي لا يرى ما يفعل ومغلق الفم حتى لا يأكل مما يصنع.. وهذا هو «أيها المؤمن العبد» هو ما يعني «غض البصر» و«الزهد»!! إلى أي شيء تدعوني في هذا العالم الثالث، وأمام العيون الحادة الخصمة للغرب المغير الوقح الذي ينظر ويبتلع؟! أين أنت يا أبي المؤمن؟ وأين أنت يا أمي المؤمنة؟! ويلكم من مصلين شديدي الغفلة حتى عن الصلاة!! أتظنون أنكم تكسبون بالصلاة إله السماوات وتكسبون في أعمالكم آلهة الأرض.. أصنام الأرض.. الأصنام التي لم تعد بعد ذلك تلك التماثيل العاجزة الصماء التي كانت في عصر إبراهيم وأرض محمد عليه السلام!!

أما صومك فهو عبارة عن تغيير لمواعيد عشائك وغذائك . . حسناً . . أنا لم أغيرها . . وقد فكرت إنه إن قال لي الطبيب : إن بدنك قد ازداد سمنة ، وإن ضغط دمك قد ارتفع ، اتبغ نظاماً تصل به إلى نتائج حاسمة وعلمية لفعلت . . لكنك لا تفعل ولو تعرضت أحياناً لمتاعب في الإثني عشر ومتاعب في المعدة ، وكان يجب أن تأكل كل أربع ساعات لكنك كنت تصوم وتشرف على الهلاك . . هذه هي النتيجة التي توصلنا إليها من صومك فحسب ؛ لأنه بعد شهر رمضان تعود كل أعمالك وأفكارك إلى ما كانت عليه وتقوم بنفس الأفعال التي كنت تقوم بها قبل شهر رمضان ، تعود إلى نفس التفكير ونفس السمات ونفس الأخلاقيات والسلوك . . حتى في شهر رمضان نفسه لا تغير يذكر في فعلك وسلوكك ، اللهم إلا أنك تغلق فمك . . كل ما حدث أن شهراً ضاع من وقتي ومن وقتك . . لأن حياتي وطعامي وبرنامجي كله تغير واضطرب ! !

وماذا عن الحج؟ !

أبي . . أمي . . لقد ذهبت معكما إلى الحج ، قلت ما يشبه هذا في محاضرات الحج في العام الماضي في المدينة المنورة . . قلت : لست واعظ القافلة لا ولا إمامها . . لست إماماً لكم ولا حاجاً مثلكم ، جئت من الجيل الذي لا شأن له بالحج والصوم والصلاة ، وإبراهيم ومحمد والله والوحي والإلهام والذي صار غريباً عن كل هذه الأمور . . جئت لأقول لكم : لماذا جئتم هنا؟ لماذا جئتم هنا أساساً؟ وما معنى هذه الأعمال؟

ورأيت ماذا تفعلان . . رأيت أنكما جئتما مع الآخرين في

طائرة بوينج ٧٠٧ إلى مكة. . وعندما هبطتم في المطار أخرجتم دليل الحج وعلى غلافه عدد من الأسماء الضخمة. . وأخذتم تقرأون فيه مناسك الحج وشعائره. . وأول ما يشاهد في الإرشادات المكتوبة فيه، وعلى الحاج أن يقوم بها «عندما تصل وتهم بالنزول من فوق راحلتك. . فاخط بقدمك اليمنى على الأرض» وقرأت قصة مناسككما وحجكما حتى آخرها.

لكني جئت خلفك، رأيت أنك ذهبت إلى المدينة وبدأت من هناك، وأمام المسلمين أخذت تطالع كُتيب الزيارة من أجل الأشخاص الذين تقدسهم، لكنك لا تعرف أصلاً من يكونون؟ وأغلب ما تحتوي عليه كتب الزيارة هذه هو اللعن تقوله بصوت عالٍ موزعاً إياه على عقائد أغلبية المسلمين وعواطفهم. . أولئك الذين جاءوا مثلك لزيارة الرسولﷺ.

ثم عندما دخل وقت الصلاة، وفي مسجد الرسولﷺ، ارتفع الأذان، وظننت أنه قد حان وقت تذكر أذان بلال وصلاة الرسولﷺ وصفوف جماعة المسلمين في صدر الإسلام، وأنها كلها سوف تحيا داخلك وتوقظ فيك الشوق، رأيت التاجر والكناس وصاحب الحانوت والأبيض والأسود والأصفر والعربي والتركي والتتري والصيني والهندي والأفغاني والفلبيني والأندونيسي والسوداني والزنجباري والسنغالي والبربري واليوغوسلافي، الذين جاءوا من كل أنحاء العالم. . كلهم تقاطروا على المسجد بأمر واحد وتجاه قبلة واحدة، في مسجد رسول الإسلام وقفوا صفوفاً. . وتموج بحر اللون الواحد في الأعراق البشرية موجاً كان

يخرج من كل أبواب المسجد ويغطي كل سماء المدينة المنورة، لكني رأيت فجأة أنك مع جماعات متفرقة مسرعة، وسط البحر المواج جميل الصوت لجماعة المصلين، من هنا ومن هناك ومن الجهات الأربع نعالكم في أيديكم تشقون الصفوف المنظمة الموحدة للأخوة الذين يتموجون بلحن الصلاة.. وتفرون بسرعة واحدة وكأنكم تستمعون إلى جماعات الجن والعفاريت!!

وأسأل: لماذا؟! فتقول: «من أجل ألا نصلي معهم، نحن لا نصلي في مسجد الرسول ومع المسلمين.. سنذهب إلى الفندق ونصلي معاً خلف إمامنا الخاص!!».

وأرى أنهم جميعاً ينظرون إليكم كأتباع مذهب مخالف للصلاة أصلاً في مسجد الرسول ويسألون أنفسهم: من أجل ماذا جاء هؤلاء؟! هل جاءوا فقط لكي يقوموا في مسجد الرسول ـ وبصوت عال ـ باللعن وبذر بذور الاختلاف والفرقة؟! وسوف يجيبكم الاستعمار على سؤالكم على لسان عجل السامري الذي صنعه من الفريقين، وسوف يقدم كلاً منكم إلى الآخر، وسوف يقول لكم: إن هؤلاء السُّنَّة جميعاً من النواصب وهم أعداء آل البيت عليهم السلام وسوف يقول لأهل السنة: إن الشيعة جميعاً مشركون من مؤلهة علي وعبدة للشمس وأعداء لفلسطين، ويعتقدون بأنه لا قيمة للقرآن الموجود ويؤمنون بدلاً منه بمفاتيح الجنان، وأنهم بدلاً من الكعبة يطوفون بالقبور!!

وفي مكة يكون كل انتباهك ووسواسك منصباً على أن يكون

طرف كتفك الأيسر محاذياً للكعبة بدقة عند الطواف، وإن انحرف ملليمتراً واحداً فإن كل شيء يبطل(!!) حتى إن كثيراً من الرجال يمسكون بأكتاف نسائهم ويجعلونه طرف البيت حتى لا ينحرف اتجاهه، وكأن الحج عمل آلي أليكتروني معقد بحيث ينبغي أن يتنبه الذهن وكل الحواس إلى المسائل التقنية والفنية الخاصة بهذا العمل، ولو أن دقيقة من الغفلة حدثت في أسلوب العمل لانفجر!! في حين أنني أسمع منكم في موضع آخر وأنتم أنفسكم تقولون: إن الرسول ﷺ دخل البيت الحرام على راحلة وطاف راكباً!! ودائماً، وفي كل مكان، فإن كل ذهنك وحواسك منتهية إلى نفسك هذه الشكليات الكمالية.. لقد سألت ألف مرة «كيف؟» ولم تسأل مرة واحدة «لماذا»؟!

وكل هذا المجهود والوسواس والدقة تنفقهما في مكة من أجل الشكل الدقيق لوضع كتفك، وفي نفس المكان، وعلى بعد أربعة أقدام منك يقوم اليهود بمذبحة بين المسلمين شركائك في العقيدة وإخوانك في الدين، ويدخلون بيوتهم، ويرتكبون الفضائح وهتك الأعراض، ويفجرون المنازل على النساء والأطفال، ثم ينصرفون وأنت.. ولا كأن برغوثاً لدغك.. ليس هذا فحسب.. فإنك أصلاً لا تسمع الأخبار وتقول: «وماذا نصنع يا سيدي؟! كل إنسان يخلص نفسه ويصلح نفسه!!، نحن لا نفهم في السياسة الدولية.. يا سيدي.. من أين تعلم أن هؤلاء الفلسطينيين الأشرار السُّنَّة ليسوا بأسوأ من اليهود؟! شاهد بنفسك الأفلام العربية.. أي فساد تحتوي عليه! هذا جزاؤهم؛ لأنهم ليسوا من الشيعة.. هذا

هو انتقام لآل البيت يدفعونه هم. . لا تغفل عن جزاء الأعمال!!».

كان أحدهم من نفس هذه القوافل يقول: رأيت فجأة أن بطانيتي غير موجودة. . بحثت عنها ولم أجدها. . وفي النهاية انصرفت عنها. . وذهبت واشتريت بطانية من هنا، تلك التي يقول أحد الرفاق عنها: إنها مصنوعة من شعر الغربان (!!). . وذهبنا إلى عرفات، وينبغي على كل إنسان هناك أن تكون معه بطانيته وهناك تعرفت على بطانيتي المسروقة. . ففي طرفها كنت قد وضعت علامة ما. . ولم ينتبه صاحبنا (اللص)، ونظرت فرأيت صاحبنا إياه الذي «علق» بطانيتي قد سل خيوط حاشيتها المخيطة بالماكينة بصعوبة؛ لأنه من الناحية الشرعية ينبغي أن تكون ملابس المحرم غير مخيطة!! رأيت أن كل حجك وهو جهادك، وكل إحرامك وهو الذي يذكر بالبعث يوم القيامة. . وفي نفس تلك اللحظات المهولة للحشر، وفي أوج ذلك الوجد والعشق والتضحية التي قدمها إسماعيل. . كلها من ناحيتك لا شيء. . إنها لم تجعلك غافلاً حتى عن بطانيتك!!

والآن ستقول هذا أمر استثنائي. . أجل هذا استثنائي! لكن عندما ذهبت إلى شعائر السعي رأيت شخصين من المؤمنين منهمكين أثناء السعي في الحديث. . في نفس ذلك المكان الذي كان المرحوم جلال آل أحمد يقول عنه: «عندما كنت أذهب للسعي. . في السعي الأول لم يكن يتجلى لي كشيء مهم. . وفي السعي الثاني. . والسعي الثالث، وقليلاً قليلاً اشتعلت، أحسست بالهياج والالتهاب، بحيث رأيت أن تحمل الأمر صعب بالنسبة

لي. . واشتهيت أن أدق رأسي بجدران المسعى حتى تنفجر»[١] ولم تكن لدي جلال آل أحمد آنذاك عواطف دينية حادة بعد. . لكن كانت لديه عواطف إنسانية، في مثل هذا المكان. . رأيت جناب الحاج وأحد أولئك الآباء. . بينما كان يسعى مقلداً هاجر مجدداً ذكراها يصيح برفيقه قائلاً:

ـ يا حاج فلان. . لقد فهمت شيئاً جديداً. . اكتشفته!!

وسأله رفيقه بينما كان يهرول:

ـ ماذا فهمت؟!

فقال:

ـ هؤلاء السنة لا يقومون مثلنا بطواف النساء، إن أحوالهم خربة جداً. . أليس الذي لا يقوم بطواف النساء تحرم الزوجة عليه. . إذن فآباء هؤلاء لم يقوموا قط بطواف النساء فهمت ماذا أريد أن أقول يا حاج؟!

ـ نعم، فهمت، بارك الله في ذكائك. . أنت إذن تقول: إن كل هؤلاء. . هاهاها!

وفي نفس هذا السعي كنت أهرول، وقال أحد رفاقي في السفر وكان طبيباً عالماً ذواقاً للفن حساساً: لأول مرة أحسست

---

(١) جلال آل أحمد كاتب ومناضل إيراني معاصر. . بدأ ماركسياً وانتهى مسلماً. من أشهر كتبه «غرب زدگى» الابتلاء بالتغرب. والنص هنا من كتابه «خسى در ميقات: قذى في الميقات» وهو مذكرات حجه. توفي وفاة مريبة سنة ١٩٦٩. المترجم.

كيف أن هذا الحج يحتوي على عمق الوجود، وأن في الإسلام كل هذه المعاني والفكر، ولم أكن قد تخيلت قط أن الدين يحتوي على كل هذا الفكر والفلسفة والعمق والثقافة، كان قد خضع بعمق لتأثير هذه الروحانية وكل هذا الإحساس وكل هذا الفكر وكل هذا العمق في التأثير وثقل المسؤولية التي يقوم الحج بوضعها على طبيعة الإنسان الواعي وحياته.. ومن هنا كان يتأمل كل نقطة تأملاً طويلاً.. ويسأل عن كل شعيرة، ويجد كل شيء فياضاً بالمعاني والعمق والشعور.

كان يقوم بالسعي بالقرب مني، وكان غارقاً في الفكر والإحساس، ولما كان متميزاً بالدقة فقد فتح كتاباً ـ من نفس تلك الكتب التي تعد خليطاً من المناسك والأدعية وكتب الزيارة ـ وأخذ يقرأ كل ما هو متعلق بالسعي.. وسألني بدهشة قائلاً: يا فلان لقد كتبوا هنا كلاماً لا أفهم بالضبط ما المقصود منه؟ سألته: ماذا كتبوا؟! قال: كتبوا: في السعي الرابع.. وفوق الدرجة الرابعة من الصفا.. لو توقفت وقرأت هذا الوِرْد.. تصبح غنياً!!» وضحكت، إن شاباً مفكراً عالماً وحساساً يفهم معنى «القيم الإنسَانية» و«جماليات الروح» و«ثروات الشعور والمعرفة» والفن والإيمان والعشق، واكتشف في الإسلام حديثاً.. وبخاصة في الحج كل هذا الجمال والعمق والاحترام العلمي.. يلقى بهذه الأشياء التي تسد حاجة عباد المال الأشقياء الفجرة معدومي الكفاية.. ولكي أبررالأمر قلت: يا دكتور هذا ما كتبه باعة هذه الكتب التي ألفت قبيل الحج، فأشار لي إلى غلاف الكتاب.. وقرأت اسم

المؤلف، فسرت رعدة في ظهري. . الجواب الذي استطعته هو أنني سرت في طريقي. . وواصلت سعيي. . بأقصى ما أستطيع من سرعة!!

أقول: هذه الوصفة صحيحة أيضاً، هذا هو طريق الوصول إلى الغنى حقاً. . لكن هناك، أيها المؤمن بالله، في هذا الموضع الذي يذوب فيه امرؤ في هذا العشق، والروح المهتاجة بنار إبراهيم وتضحية إسماعيل وسعي هاجر الوحيدة المطرودة، وقبس من ذكرى الرسول وفكر الله والإنسان والقيامة. . هل تعن له فكرة اكتشاف طريق للغنى في مثل هذا الموضع؟!

وأنت أيها السيد العالم كاتب هذا الكتاب. . ألا تأخذ أنت نفسك أموالاً من أحد؟! ألا تسلك أنت نفسك طريقاً آخر من أجل أن تصبح غنياً. . هل كل ما تفعله أنك تأتي كل عام وتقف على الدرجة الرابعة من الصفا وتقرأ هذا الدعاء وتصبح غنياً؟! ولماذا لست غنياً أنت نفسك؟! وإذا كان لديك المال فهو بالتأكيد ليس عن طريق الدرجة الرابعة من جبل الصفا. . وفي الأصل أيها العالم العزيز أية درجة رابعة؟!لم يعد الصفا ربوة بعد. . فهو الآن ممر حديث على النمط الإيطالي والأمريكي. . فيما تفكر؟! هل تكتب دليلاً للحج للناس الأشقياء وأنت نفسك لم تحج؟ هل تنسخ من الكتب التي عفا عليها الزمن؟ إن الحاج اليوم لم يعد يركب بعد الطائرة ذات الموتورات الأربعة، فقد صارت قديمة جداً ولم تعد تستخدم بعد على خط مكة، وأنت لازلت حتى الآن تتحدث عن الجمل والدرجة الرابعة من ربوة الصفا وسوق باعة العطور. . و. .

ألست أنت في النهاية الذي تكتب إنه إن قرأ أحد ورد كذا إذن يجعلك غنيّاً. . وسورة كذا من القرآن تذهب عنك الألم وتشفي مرضك. ويقرأها الناس بأمر منك على أنه أمر الدين ولا تجدي فتيلاً. . فيرتدون عن عقائدهم، ويظنون أن الكعبة والدعاء والقرآن أمور لا نتيجة منها!!

نعم. . يا أبي. . ويا أمي. . أعلم أن النقود لا يتحصل عليها من هذا الطريق، وأعلم أن الدين يأمركما ويأمر أمثالكما باحتقار الحياة والتقوى ومدح الفقر واعتباره فخراً؛ لأن الرسول ﷺ قال: «الفقر فخري». . أو تراه يدعوكم إلى قراءة وِرْد، من أجل أن تغتنوا وتسعدوا وتبلغوا التمتع المادي والخير والبركة الاقتصادية، وتطلبوها بعجز والتماس وضراعة من أحد أئمتكم وأولاد أئمتكم؟! لكني أرى أنه بينما تسلب ثروتك ومنابع ثروتك وكنوزك ومجتمعك وكل العالم الإسلامي الذي تنتمي إليه. . وأنت تنظر إليها أساساً على إنها زخارف الدنيا وتقول: «هذه هي كلها جيفة ولا قيمة لها، إن نعيم الدنيا من نصيب الكفار، فهم مساكين ولا نصيب لهم من الآخرة. . وسوف ينظرون بحسرة إلينا آنذاك. . وسوف يردون كل ما نهبوه. . أتركهم الآن ينهبون!!» ماذا أقول:؟ إن في الواقع أن رأسك «على قدك» بحيث أصبحت لا تدري ما الخبر!!

لكني أنا ـ أنا الملحد ـ أعلم أن طريق الغنى بالنسبة لي وبالنسبة لمجتمعي هو أن أحتفظ بما لدي من مال، وأن استرد ما أخذه عدوي مني. . ومن أجل الغنى يلزم العلم، والتقنية، وإعداد

الفكر والشعور والعمل المنطقي.. ألست ترى أنكم أنتم المؤمنين قراء الأدعية قد بقيتم فقراء متخلفين وأن هؤلاء الكفرة الأنجاس متقدمون وأصحاب كل نعيم الأرض؟!

أبي.. أمي..

إنك كل سنة وكل شهر وكل أسبوع وكل ليلة وكل يوم كنت تبكي، ولا تزال تبكي من أجل قضية تسمى كربلاء.. وأنا لا أعرف ما الحكاية وأنت أيضاً لا تعرف.. وكلما سألتك قلت أشياء غامضة، وعلى كل لم أفهم أساساً ماذا كانت كربلاء هذه؟! وكيف؟! وأنت نفسك لم تكن تعلم.

كنت أسأل: من كان الإمام الحسين؟! وكنت تقول: ضحى بنفسه فداءً للأمة.. وكنت أسأل: يعني ماذا ضحى بنفسه من أجل الأمة؟! وكنت توضح الأمر قائلاً: أي سلم نفسه للقتل هناك حتى يشفع يوم القيامة في أمة جده!!

قلت: يا أبي.. هذا هو كلام المسيحيين عن المسيح! إذ يقولون إنه بعد خطيئة آدم وطرده من الجنة ونفيه إلى الأرض، لم يكن في استطاعة أبنائه العودة إلى الجنة؛ لأنهم كانوا جميعاً مدانين بخطيئة أبيهم؛ ولأنه ينبغي على كل إنسان أن يقدم أضحية من أجل أن يغفر ذنبه، فضحى المسيح تعويضاً لخطيئة آدم، حتى يفتح من بعده طريق خلاص الناس من الأرض وعودتهم إلى الجنة.. ويتجاوز الله عن خطايا آدم وأبنائه.. هذا هو الأمر تماماً يا أبي!!

إذن فالإمام الحسين هذا الذي أسلم نفسه وحياته وأسرته وكل ما لديه وكل أهله إلى سيف الظلم والجريمة والبهتان واختار لنفسه الشهادة. . ألم يكن ذلك من أجل حياتي وحياتك؟! ألم يكن ذلك من أجل أن يتخلص أتباعه من نير الظلم والجور والبيعة الكاذبة ونظام الجور؟! وفي النهاية ألم يكن ذلك من أجل حرية الناس وبسط العدل وإحياء الحق؟!. . أكان كل ذلك من أجل أن نذنب هنا ثم نبكي بعدها عليه. . وفي مقابل هذا يشفع لنا يوم القيامة؟! إذن ألن ينفعنا هذا في الدنيا؟!

نعم يا أبي. . وكأن كل هذه الجهود. . أن هذا الدين لا يصلح في أي موضع من مواضعه للدنيا ولا ينفعها بشيء. . هو كله استهلاك أخروي. . وأي نجاح هذا لسادة الدنيا؟ وياله من نوم عميق بالنسبة للمتألمين المبتلين في هذه الدنيا!! أنا ـ يا أبي ويا أمي ـ أبحث عن بطل يخلصني في هذه الدنيا ويشفع لي في هذه الحياة وفي مصيري الجهنمي المدان بالفعل!! فأية نتيجة لكربلائك هذه بالنسبة لي ولمصيري المؤلم؟! لقد أبديت لي كتاباً ألف أخيراً ثم قلت: إن مؤلف الكتاب وأخيه متخصصان في ثورة كربلاء. . وأنهما كتبا عدة نقاط مهمة في هذا الكتاب. . وأخذت أقرأه. . فهو كتاب ذو سمعة عظيمة وحجم ضخم وخطر أعظم، وأيضاً اسمه «دفاع عن الحسين الشهيد».

حسناً جداً. . فأنا ـ يا أبي ويا أمي ـ تتبعت حركات العالم الكبرى بداية من الثورة الفرنسية الكبرى والحركات التقدمية وغير التقدمية في كل العالم، وأعرفها، وأعرف كل المدارس الفكرية. .

والآن . . أعطيتني كتاباً حتى أُقيّم نهضة إمامك الحسين . . وأؤمن به . . واقتنع .

وكان مكتوباً في هذا الكتاب : كان لثورة الحسين قيمة كبيرة بالنسبة لكل البشر ! ونتائجها على نوعين :

١ ـ نتائج معنوية .

٢ ـ نتائج مادية .

أما نتائجها المعنوية فأعظمها فحواها وأنه لو اجتمع عدد من الباحثين وأعدوا قائمة بأسماء كل الرجال والنساء الذين غفرت كل ذنوبهم يوم القيامة ودخلوا الجنة نتيجة للبكاء على الحسين، فسوف يتجاوز عددهم عدة ملايين من الناس، هذه هي إذن النتيجة المعنوية للثورة . ! !

أما نتائجها المادية فهي أكثر أهمية، ولا بد أن يندهش علماء الاقتصاد وكل أقطاب الرأسمالية في الغرب من كل هذه النتائج الاقتصادية لثورة الإمام الحسين! ! قلت في نفسي : لا بد أن هذا الجزء يتصل بهذه الدنيا، ويتصل بأمور الحياة الاجتماعية وإنتاج السلع ورفع مستوى الدخل القومي والرفاهية المادية واستخراج مصادر إنتاج جديدة في هذا المجتمع الشيعي، ولا بد أن لها دوراً مهماً في هذا كله بحيث تخلص أتباعها من الفقر الاقتصادي وتخرج الشيعة من قائمة المجتمعات المتخلفة في العالم الثالث! !

ويفسر المؤلف اكتشافه (المذهل):

كل هؤلاء الزوار الذين يذهبون إلى كربلاء كل عام من سبزوار وقرى قزوين وجونا بادويزد وكاشان وكردكوه ومحمد آباد. . وسائر الأنحاء، يحملون من بلادهم بعض البضائع المحلية يبيعونها هناك ومن دخلها يحملون بعض البضائع من كربلاء كهدايا ويعودون إلى ديارهم. . ونتيجة لهذه الصادرات والواردات والتبادل الاقتصادي المستمر. . يحدث نوع من الصفقات والتبادل الاقتصادي كتيار مستمر بين كربلاء وقرى إيران وأقاليمها. . وهذا لم يسبق له مثيل في العالم!!

قلت: أي ضيق نظر هذا؟! يا لها من رؤية كونية «فأرية» وأي نوع من الدين هذا الذي لم يهبك رؤية، بل أخذ منك عينيك بحيث تنظر لترى إحدى الشركات اليابانية الصغيرة. . وكم تصدر إلى العالم. . لتفهم في أي مستوى يكون التبادل الاقتصادي في مدينة واحدة في هذا العصر الذي نعيشه! فذلك الحاج الإيراني المسكين إلى كربلاء يحمل من إفلاسه غطاء أو سجادة صغيرة أو بطانية من قريته إلى كربلاء ويبيعها بشروى فقير لعراقي في النجف والكوفة أو كربلاء ومن ثمنها يعود بهدايا عبارة عن قبضة من تراب السجود والمسابح وتراب التيمم، يحملها كهدايا لأهله ولأبيه ولأمه وعمدته، ففتحت عينيك على أن كل هذه صادرات وواردات اقتصادية حدثت في العالم اليوم وليست مسبوقة في تاريخ البشر. . ثم تمتن على الإمام الحسين على أنك «ارتكبت» مثل هذا التحليل العلمي والاقتصادي عن ثورة كربلاء. . وعلى خلاف القدماء. .

قدمت رؤية عصرية لتقييم ـ ولا مؤاخذة ـ الثورة، وبحثت في فلسفة ثورة الحسين العظيمة وهدفها وعللها العميقة وأثبت للمفكرين بل للعالم كله مصدر كل طوب السجود والمسابح التي توجد في أنحاء إيران الواسعة بشكل وافر. . ولا تصل أمة من أمم الشرق والغرب إلى مواطىء أقدامنا في هذا المجال، هذه هي النتيجة الاقتصادية لثورة الحسين والشهادة الجماعية لأهله وأقربائه!!

كان هذا هو آخر ما كنت أقرأ من الأعمال العلمية المفصلة بشأن أعظم حادثة وأعلى مظهر للعشق والتاريخ عندك وفخر مذهبك. . ثم تتوقع أن أقرأ هذا العمل الشامخ التحليلي الفلسفي الإقتصادي الذي أنتجته مدينتك المقدسة قم. . ونصف الكتاب اتهام وكذب واختلاق وطول لسان وتنفيث عن عقد النقص ومركباته في كل شيء وافتراءات وقحة لا دليل عليها ولا سند بالنسبة للمؤسسات المذهبية والكتّاب والشخصيات التي تشارككم في الدين، ونصفه الآخر[1] أبحاث علمية مضحكة تكاد تخرج

---

(١) من عجائب الدهر أن يكون رد الفعل الأكثر طبيعية الذي يحدثه في القارىء البسيط هو زوج من القرون تخرج من رأسه. . هذا هو ما قدمه مؤلف هذا الكتاب وهو نفسه في لباس رجال الدين المقدس ومن علماء الدين، فضلاً عن أن رسالته هي الدفاع عن الحسين الشهيد» وإلى جوار الاتهام والاختلاق والتهم القذرة الوقحة التي تفضل فأسبغها على الشخصيات والمؤسسات المذهبية مجال احترام الأغلبية فقد نشر منشورات في عدة صفحات نشرته عصابة معروفة ضد حسينية الإرشاد، ومن أجل تحريض العوام قد قامت بالسب والشتم وتحريف متون الكتب المنشورة من حسينية الإرشاد، وقد قامت هذه العصابة بما تمليه عليها مصالحها الاجتماعية المالية، لكن مؤلف الحسين الشهيد نقل ذلك البيان سطراً سطراً ونقطة نقطة دون ذكر للمصدر وأدرجه باسمه في كتابه. . هذه «السرقة غير الأدبية» تحدث كثيراً.

المعدة من شدة الضحك من هذا النوع. . وتريد بعدها أن أفكر في الحسين بشكل جدي؟!!

أبي. . أمي! وأيها السيد الناصح الديني المستنير الذي يقول: إن أمثال هذه الكتب منحرفة. . وليس ما يقولونه هو حقيقة الإسلام: إنني طالب جامعي أطلب العلوم، وفي مجالات أخرى أنا أستاذ ومترجم وكاتب، لست متخصصاً ولا مجتهداً دينياً بحيث أذهب بنفسي وأبحث عن الحقائق والأسرار من منابعها الأصلية، وأنا المهندس والطبيب وعالم الاجتماع أو الأديب أو الاقتصادي، وهذا الكتاب وأمثاله هو كتابكم الديني، كاتبه في كسوة رجال الدين الرسمية، وهو يصعد على المنبر، هو الداعية الرسمي لدينكم، وهو ملتحق بالهيئة العلمية لمذهبكم، وفي كتابه أيضاً يوجد عدد من خطوط أيدي العلماء المشهورين ورجال الدين البارزين، كما أن واحداً من علمائكم لم يوجه أي نقد لكتابه هذا!! والآن: كيف أذهب أنا وأقوم بدراسات تاريخية وفلسفية ومذهبية معقدة وأنا مهندس أو طبيب أو طالب ثم أصل إلى النتيجة التي تقول: بأن هذه الكلمات لا تتفق مع حقائق الإسلام الأولى؟! النتيجة التي لم يصل إليها علماؤكم الرسميون أو دعاتكم الرسميون!!

أعطيتني كتاباً مشهوراً ومقدساً لواحد من علمائكم المقدسين والمشهورين وكلكم تؤمنون بصحة ما فيه. . وقرأته. . كتاب يعد مصدراً لكل منابركم ولا يجرؤ أحد على أن يقول للكاتب: «ثلث

الثلاثة كام»[١]. . كتاب هو منتهى آمالكم أيها الدينيون فكيف أقول أنا: أبي، وعمي، أيها السيد الداعية الذي تقوم بهدايتي. . هل يعرف أحدكم شخصاً في هذا العالم أعظم من محمد أو من علي؟! عليّ بكل عظمته تلك التي اعترف بها أكثر منكم وأعظم كثيراً منكم ومن دعاتكم المنتشرين. . ورسول الإسلام؟! حتى أولئك الذين لا يؤمنون بمبدأ النبوة يعتبرونه أعظم مما يعتبره أولئك الذين يعترفون بنبوته. . هذه هي الأيام الأخيرة من حياة الرسول وعليّ هو موطن سره ونجيه وشريكه في أفكاره العظيمة السامية، يدخل الرسول منزل عليّ خفية من عيون «الخصوم» إنه يريد أن يسر إلى عليّ ببعض الأسرار العليا في نهاية حياته، يوصيه. . والآن وقد اختلى الرسول بعليّ في منزل عليّ. . على هذا الوضع وبهذه الحالة!! كل إنسان لديه شعور يعرف هذين العظيمين لا بد وأن قلبه يدق في تلك اللحظة إذ يرى هاتين المعجزتين العظيمتين في العالم. . قد جلس كل إلى الآخر في خلوة. . إنها الوصية إذن!! إنها الأسرار؟! أتدري أي شيء قرأت في هذا الكتاب العظيم الضخم المقدس عندكم؟! مكتوب: إن الرسول أوصى عليّاً بوصيتين. . الأولى: يا عليّ عندما أسلم الروح وأنا على صدرك. . خذ روحي بمجرد خروجها في قبضتك وامسح بها على وجهك!! والثانية: واظب على تغطية عورتي جيداً حتى لا يراها أحد. . لأن من يقع بصره عليها يصاب بالعمى!! انتهى!!

---

(١) حرفياً: فوق عيني الكاتب حاجب وهو مثل فارسي يؤدي معناه المثل المذكور في الترجمة. المترجم.

نعم. . انتهى. . ثم لا تعطيني الحق يا أبي. . وأنت أيضاً يا أمي بأن ألقي بهذا كله جانباً وأنصرف إلى عملي وحياتي. . إلى العلم والفكر والفلسفة والآداب والفن؟! إنني أقرأ الآن «لعبة العشق والموت» لرومان رولان[١] عن الثورة الفرنسية الكبرى! و«دع الحطاب يستيقظ» و«الثورة الأمريكية» لمالرو[٢] عن حرب الاستقلال الأمريكية، كما أقرأ كتاب أرندت[٣] في تحليل علم الاجتماع وبحث النتائج الاجتماعية والاقتصادية، وقرأت عمل موريس توريز[٤] ولي كارج عن الثورة الكبرى، وطالعت «الصين عندما تحارب» وأقرأ الآن كتاب «دليل الاستعمار» لفرحات عباس[٥] و«السنة الخامسة للثورة الجزائرية» و«معذبو الأرض» و«مجموعة مقالات من أجل أفريقيا» لفانون[٦] عن ثورة الجزائر.

---

(١) رومان رولان (١٨٦٦ ـ ١٩٤٤): أديب فرنسي. دعا إلى نبذ العنف ونشر الحب بين الناس. نال جائزة نوبل ١٩١٥.

(٢) أندره مالرو (١٩٠١ ـ ١٩٦٧): أديب ودبلوماسي فرنسي. روائي وناقد فني وأدبي واسع الثقافة. له مذكرات رائعة.

(٣) هاناه آرندت (١٩٠٦ ـ ١٩٧٥): فيلسوفة أميركية ألمانية الأصل. اختصاصية بالعلوم السياسية لها مؤلفات في الكُلّيّانية أو الشمولية.

(٤) موريس توريز (١٩٠٠ ـ ١٩٦٤): سياسي فرنسي وقيادي شيوعي. أمين عام الحزب الشيوعي الفرنسي ١٩٣٠.

(٥) فرحات عباس (١٨٩٩ ـ) سياسي جزائري. رئيس الحكومة الجزائرية المؤقتة ١٩٥٨ ـ ١٩٦١. أعفي من منصبه وأبعد من جبهة التحرير الوطنية.

(٦) فرانز فانون (١٩٢٥ ـ ١٩٦١) عالم نفس واجتماع فرنسي. تشكل كتاباته دفاعاً صارخاً ضد الاستعمار.

كما قرأت أعمال نهرو[١] وأبي الكلام (آزاد)[٢] وحرب السكر في كوبا وعشرات الكتابات العلمية المنطقية الفكرية الموثقة، ذات الفكر العميق والأسلوب الجميل والمعرفة العلمية والتحليلية للثورات الكبرى، ثم تعطيني كتاب «دفاع عن الحسين الشهيد» لكي أعرف ثورة كربلاء وتتوقع أن أهمل كل تلك الكتب وكل تلك الثورات وأعكف عَلَى هذا؟! هل تتوقع أيضاً أن أكون مثل «العوام كالأنعام» حتى تقول لي: «هذا كتاب ضال لا تقرأه» و«هذا الإنسان مضل لا تسمع كلامه» و«لا يجوز الذهاب إلى هذه المؤسسة فلا تذهب إليها» وأقول لك: حبّاً وكرامةً.. حاضر.. من عيني.. «يا أبي طب خاطراً فأنا لم أفهم شيئاً من عاشوراء هذه وثورتها.. أو قراءة الروضة والضرب على الصدور وإحياء المصيبة والصراخ والعويل والبكاء.. ومن كل كربلائك هذه.. فتركتها..

ومن الأصول والمبادىء الأخرى التي تركز عليها كثيراً جداً في مذهبك مبدأ «التوسل»، لقد اصطحبتني إلى مجلس وقلت لي: بالمصادفة سوف يتحدث في هذا المجلس أحد الرجال المستنيرين من نمطك، إنه يهمك وينفعك.. وذهبنا.. كان يتحدث عن التوسل والوسيلة وهذا هو ما أذكره.. كان هناك إنسان شديد الفساد.. قتل عدداً من الناس.. وسأل أحد العلماء قائلاً: لقد

(١) جواهر لال نهرو (١٨٨٩ ـ ١٩٦٤) سياسي هندي. رئيس الوزارة ١٩٤٧ ـ ١٩٦٤. من زعماء دول العالم الثالث ومؤسسي حركة عدم الانحياز.

(٢) أبو الكلام آزاد (١٨٨٨ ـ ١٩٥٨): سياسي وأديب من زعماء الإسلام في الهند وكبار المجاهدين في سبيل استقلال بلاده. (المصحح).

ارتكبت جرائم كثيرة وقتلت كثيراً من الناس فهل أستطيع عن طريق الدين أن أجد طريقاً ومهرباً آخر أو وسيلة أو أقوم بعمل ينجيني ويجعل الله سبحانه وتعالى يغفر لي ذنوبي. فقال له: لا . . لا يوجد. . ولا يصح. فوثب عليه صاحبنا لتوه وقتله، ثم ذهب إلى آخر وسأله فرد عليه بنفس الرد، فالحق به على الفور عقاب لسانه السليط، وأيأسه ثالث فألحق به نفس المصير حتى بلغ عدد قتلاه تسعة وتسعين شخصاً(!!!) ثم ذهب إلى الشخص المائة يسأله عن وسيلة وحل، ولعل ذلك الشخص كان أكثر علماً وفهماً فوجد له حلاً شرعيّاً وقال له: نعم يا سيدي هناك طريق للخلاص قال: ما هو؟! قال: هذه القرية التي في الشمال كل أهلها من الصالحين الطيبين. . وعندما يقومون بالدعاء. . احشر نفسك معهم وقم معهم بالدعاء. . ولما كان الله يشمل برحمته كل الصالحين. . فإنه عندما يُغفر لهم سوف يُغفر لك بشكل تلقائي. قتل تسعة وتسعين شخصاً من أولئك الناس الذي كان كل جرمهم أنهم حدثوه عن القانون الإلهي، ووجدوا أن الحديث في الدين لمصلحة هو مجرد كذب. . ولم يكونوا على علم بفن الاحتيال والنصب الشرعي. . «ويترك ذلك الشخص المائة حيّاً ويمضي نحو القرية، ويهلك في الطريق. . وفي الليل يرى فيما يراه النائم أن صاحبنا في وضع طيب جداً وقد استقر في غرف أعلى عليين!! ونسأله: كيف حدث وخلصوك؟! فيقول: لقد جاء إليّ ملائكة الرحمة وملائكة العذاب، وكل جماعة كانت تريد أن تأخذني معها، واشتد النزاع بينهم وطال، وفي النهاية اتفقوا على قياس موضع وفاتي بين القريتين،

فإذا كانت المسافة أقرب إلى قرية الصالحين يغفر لي على أساس أن أكون من الصالحين وأذهب إلى الجنة، وإذا كان أقرب إلى القرية الأولى أحسب ضمن الفاسقين والمجرمين وأكون من أهل العذاب، وعندما قاسوا وجدوا أنني أقرب إلى قرية الصالحين بمسافة عقلتي أصبع ونصف.. وهكذا غفر لي.. رغم هؤلاء التسعة والتسعين.. وجئت إلى الجنة»!!

وأنت يا أمي.. لقد قمت باصطحابي أنا ابنتك الشابة إلى محفل ديني ودعاء وأخلاق، وهناك كان الواعظ يتحدث عن الشفاعة وعن الأثر الذي أحدثته شخصية الحسين وثورته في البشرية، وكنموذج عيني ومثال من أجل إثبات هذا المبدأ القائل بأن حركة كربلاء هي مدرسة للحرية، وأن الحسين هو سفينة النجاة ومصباح الهداية.. وماذا ينبغي على البشر أن يفعلوا لكي ينتفعوا به قال: ذات يوم من أيام عاشوراء، وكان كل سكان المدينة منهمكين في البكاء في المساجد والمحافل، كانت هناك امرأة فاسقة في أحد أحياء المدينة، وكانت «معروفة» رسمياً وكانت دنسة إلى أقصى درجات الدنس والنتن، ومن بين فواحش المدينة كانت أكثرهن قذارة .. وفي نفس ذلك اليوم كان عندها عدد من زبائنها.. وقرب الظهر كانت تريد أن تعد الغذاء من أجلهم وتبدأ القصف واللهو، ولم تجد في منزلها كبريتاً، فذهبت إلى منزل الجيران، وهناك كانوا ينشدون الروضة ويوزعون حساء كربلاء الخاص، وكان الباب مفتوحاً.. وثمة حركة.. ودخان.. وشهيق فذهبت إلى المطبخ، وكانت شعل النار تحت القدر مطفأة حط فوقها

الرماد، في حين أنه في الغرف العليا كان منشد الروضة قد وصل إلى الوضع الذي يتحدث عن القتل. . والسيف الموضوع على حلق الإمام والدم والتماس قطرة من الماء والقذف بالحجارة وغيره. . وكان النواح والعويل يرتفعان من القلوب والأفواه، وفي المطبخ كانت المرأة تنفخ في غبار الموقد. . ونتيجة للدخان والرماد الذي دخل عينيها. . وبينما كانت مصيبة الحسين تتلى، نزلت بضع قطرات من الدمع من عيني هذه البغي!!

وفيما بعد رآها أحد الناس فيما يرى النائم وهي في غرف الجنان العليا محشورة مع النساء الطاهرات وسألوها: ماذا تفعلين هنا؟! خيراً؟! ماذا حدث. . وأي شكل يا ترى الحساب في هذه الأماكن؟! فأجاب: لقد كانت أحوالي في غاية السوء. . كان الله قد دقق معي في الحساب لدرجة أني كدت أجن. . كانوا يزنون كل أعمالي وكل أحوالي وحتى ما يوسوس به صدري أو يمر بخاطري لحظة واحدة بميزانه العجيب. . والله كان يقول: «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره» النتيجة هنا!! وطبعاً تعلمون أن عملي ودخلي وحياتي وعمري وكل وجودي كلها كانت ذنباً متصلاً. . لقد كنت وحدي أكفي حيّاً كاملاً للفسوق!! الخلاصة أن ملائكة الحساب والكتّاب شدوا وثاقي بالأغلال بكل عنف وأخذوا يقولون: ألم تقومي بذرّة من الخير مرة واحدة في حياتك؟! وأخذوا يقولون: ذاتك دنسة، وفكرك وروحك وإحساسك وشخصيتك قد عجنت في الدنس والضعة والقبح والذنب. . وفجأة نحوا القرآن والميزان والكتاب جانباً، والله نفسه

غير لهجته وسلوكه(!!) ورأيت «شفيع يوم الجزاء» قد جاء وأخذ بيدي ونجاني من تلك المحاكمة الرهيبة، ولما لم يكن في يدي اليمنى جواز دخول، وكانوا قد وضعوا على أبواب الجنة موظفين يقظين دقيقين، بحيث لا يمكن أن يمر إنسان دنس واحد أو لا قيمة له أو بلا شعور، وإن مر فعبر باب سري مغلق لم يكن يعرف به أحد إلا أصحاب المكان فحسب هم الذين كانوا يدخلون منه، واصطحبني السيِّد من ذلك الباب وحشرني مع نساء أهل الجنة.

وأنا نفسي تعجبت، لم أكن أصدق، لقد التبس الأمر عليهم وظنُّوني أحداً آخر! لا.. هل يمكن؟! لكني رأيت هناك كثيرين من أمثالي، كان معلوماً من سحناتهم وسلوكهم وأسلوب حديثهم أنهم من أهل الجحيم، لكنهم كانوا من ساكني الجنان، ودخل كثيرون منهم بضعة من الإقطاعيين النهّابين، والحجاج أكلة الربا، والحكام قتلة البشر وعملاء الأجانب وأيادي الاستعمار والرأسماليين المستغلين والبلطجية والنشالين واللوطية وأيضاً بين الذين يخدعون العوام والسبابين والغمازين والمرتشين والزناة، كلهم كانوا مع الشهداء والمصلحين والمضحين بأنفسهم في سبيل الحرية وفي سبيل البشر والعدالة، ومحبي الحقيقة وفدائيي الحق وأتباع عليّ وشهداء كربلاء، وكل الناس المتفهمين ذوي الاحساس وأهل العقيدة والجهاد.

نعم!! سألت من هن على شاكلتي: ما الحكاية؟! لقد حشرونا مع هؤلاء ولم يكن لهم معنا حساب أو كتاب؟! وقمن بتوضيح الأمر لي: إن هؤلاء لم تأتِ بهم العدالة.. بل جاءت بهم شفاعة

الحسين. . وقال أحدهم: لقد تلوت دعاءً معيناً، وقال آخر: لقد قمت بزيارة الأعتاب، وقال ثالث: لقد وضعت تراب كربلاء في كفني. . وقال آخر: وأنا لأنني من أصحاب رؤوس الأموال فقد قمت بإعداد ضريح من الذهب لأحد الأئمة. . وقال غيره في النهاية: لقد دفعت مبلغاً كبيراً من المال واشتريت موضعاً محترماً لقبر «على ناصيتين» في أكثر الأراضي إقبالاً عليها في حرم الإمام. . وما إن وضعت في القبر حتى فتحت كوة وحملوني من ذلك المكان إلى السماء. . وفي هودج من النور حملوني إلى حيث تروني.

لكن مهما فكرت وجدت أنني لم أفعل ما يستوجب شفاعة الإمام، ولم أكن في الأصل من المهتمين في الدنيا بهذه الأمور وبعض زميلاتي في الصنعة اللاَّتي كن متدينات جداً، كن يعطلن في أيام عاشوراء، ويذهبن فيندبن ويبكين ويقمن بالزيارة، وكن يتضرعن كثيراً ويقدمن النذور. . لكن كنت أزاول عملي أيضاً أيام عاشوراء.

وفي النهاية، وبمساعدة توضيحات وتحقيقات أحد المتخصصين في الشفاعة، تتذكر (تلك البغي) يوم عاشوراء ذاك، وأنه عند ذكر المصيبة، صكت الروضة على أبي عبد الله مسامعها وسقطت الدموع من عينيها. . قطرة الدمع تلك التي نزلت بالمصادفة غسلت كل دنسها تماماً، وحولت مسارها إلى صلاح، ومحت كل الكتب السماوية ونبوة الأنبياء وإمامة الأئمة وولاية الأولياء ومجاهدة العلماء وشهادة الشهداء، وأساساً محت كل حكمة الله وقانونه وسننه ونظامه في خلق العالم والإنسان. . وكل

مدارس الحكماء الفكرية والأخلاق والتعليم والتربية والقانون والمجتمع وعلم الإنسان.. وبوجه عام.. محت العقل السليم وألقت به بعيداً!!

وهكذا كان يا أبي ويا أمي أن هربت من الدين.. في نفس تلك الليلة التي قمتما فيها باصطحابي إلى مجلس الوعظ ذاك وتحدث واعظكما عن الشفاعة.. وقص لي حكاية تلك المرأة البغي.. لقد ارتعدت، وأحسست يا أبي أن كل شيء في داخلي قد إنهار.. ونجوت.. وفي نفس ذلك المساء هربت من دينك ومن وعظك.. هرباً ظل مستمراً.. كجواد رفع القيد فجأة عن قوائمه والزمام عن فمه وتوحش.. وأنتم تسرعون خلفي لكنكم تعرجون.. وتظنون أنكم سوف توقعونني مرة ثانية في براثنكم وتروضونني.. تشتمونني ببدائية وتطلقون صراخكم المتوحش بغضب وضجيج.. وحيّ أضعف من خطواتي وتقتربون مني وتضعون الخطام والسرج والعرقول مرة ثانية على جسدي، تبدأ الكراهة هنا من جديد.. والجفول وفرار أسرع.. الفرار من هذا الدين الذي يحتوي على كل هذه القيود المعقدة القاسية حتى في ارتداء الملابس والتزين والطعام والذهاب لقضاء الحاجة.. كل منها يحتوي على مائة نوع من الواجب وغير الواجب والجائز وغير الجائز. كل هذا الضغط.. حتى لو ضحيت بالمتعة واللذة واللهو وأنواع التمتع والرفاهية.. لو ضحيت بها كلها في سبيل الدين، وذهبت إلى مجلس ديني، فإنك تجلسين بعيداً عن نظرات الرجال وأسوأ أماكن المجلس قد خصصت للنساء. بل لا حق لك في رؤية

المتحدث. . وفي حجرة الدرس الديني حيث يستطيع كل جلف وأمّيّ لا يعرف القراءة بل لا يعرف حتى كيف يسمع. . وكل فضيلته المطلقة أنه «مذكر» يستطيع أن يجلس حيثما يريد، وينظر إلى حيث يريد، ويقول ما يشاء ويسأل، بل له الحق بسبب هذه الخاصية الوحيدة أي الذكورة ووجود اللحية الصغيرة دون أن يفهم ودون أن يعلم أن يتحدث ويفحش في القول ويلقي بالتهم ويفض المجلس، ويمرغ برامج أعمال عدة آلاف ووقتهم وحقهم في الطين. . وأنا فقط بجرم أنني «مؤنث» فاسمي. . وحتى رنينه اللفظي ذنب حتى ولو كنت قد اجتزت أعلى مراحل الدراسة الرسمية والأبحاث العلمية، حتى ولو كنت قد ضحيت بحياتي وراحتي ولذتي فداءً للإيمان الديني والفضائل الإنسانية والخدمات الاجتماعية. . حتى لو كنت محجبة فأنا ألصق بدهليز بعيد في ضآلة دينية. . محتقرة من ولاة الأمور الدينيين، ويضعون أمامنا جميعاً ستارة كجدار أسود، يخفوننا خلف ستار، مع أن كل واحدة منا معها حجابها. . ومع هذا أتحمل الساعات من الشدة والاحتقار من أجل درس ديني. . ولو أن سيدة من المنتميات إلى أسرة أو طبقة عصرية. . جاءت إلى مجلسكم المذهبي من أجل أن تعلم شيئاً أو تعرف حقيقة من حقائق مذهبكم. . وظهر عدد من شعر رأسها بالمصادفة لغفلتها أو لقلة مهارتها في استخدام الحجاب، فليست هي فحسب التي تتعرض لأقذر التعبيرات وأقذع التهم بل كل النساء الحاضرات في المجلس، ليس هذا فحسب، بل ينبغي أن يجتث هذا المجلس من جذوره، ليس المجلس بل المؤسسة التي تشرف

عليه، والكتب العلمية التي يكتبها كاتب أو النظريات العلمية التي يتحدث بها متحدث.. أو المحاضرة الدينية التي يلقيها عالم.. كلها ينبغي أن تدان وترفض وتلغى!!

أرى مذهبكم من ناحية متزمِّت ومتنطِّع ومتعصِّب إلى هذا الحد لا يسامح في أصغر زلة، بل بسببها تتغير كل فضائل الإنسان وتنسى كل تضحيته وفدائيته طوال عمره.. وتصبح باطل الأباطيل ويصبح هو فاسداً.. ومن ناحية أخرى أرى هذا التسيب.. وشهامة ابن البلد إلى درجة أنه بقراءة وِرْد واحد وأنت متجه إلى القبلة، فتغتفر كل ذنوبك وتمحى ولو كانت بعدد رمل الصحراء أو مثل زبد البحر ونجوم السماء وفوقها يضاف إلى رصيدك ثواب عدد من الشهداء، والحصول على الشفاعة سهل.. لأن رسول هذا الدين يقول: «إن صليت عليّ وعلى الأنبياء من قبلي فكلنا سوف نكون شفعاء لك يوم القيامة».

أبي.. أمي..

ماذا تكون الولاية التي تؤمنان بها؟! كنت تقول: هذه الولاية هي عبارة عن محبة إنسان يسمى عليّاً ومحبة آله.. وعندما سألت: ومن هو عليّ؟! كان كل ما تتحدث عنه وتركز عليه كثيراً هو معجزات عليّ وكراماته، أي الأمور الخاصة به وحده ولا نستطيع أن نقتدي به فيها أو نتبعه حتى شجاعته وحروبه وسيفه ذي الفقار ذي الشقين ـ بدلاً من الحدين ـ وليس ذو الفقار موجوداً الآن لكي يدافع عنا أو يدافع عن التشيع.. كنت تقول: لقد اقتلع باب خيبر بشكل معجز.. حسناً.. لا توجد خيبر الآن.. الآن يوجد يهود

فلسطين لا يهود خيبر. . ولا شأن لك بهم حتى الآن. . كنت تقول: إنه بلغ درجة من الزهد بحيث لم يكن يأكل سوى خبز الشعير. . وخبز الشعير فقط. . كان يعاني الجوع وكان يلبس الملابس الممزقة وكنت تروي هذه الأخبار بالتفصيل. . وتعيد فيها وتزيد. . وتؤكد على أنه كان يرغب الناس في الفقر والإملاق. . وكنت تقول: إن الله خلق علياً قبل أن يخلق آدم والعالم. . وكنت تقول: عندما صعد الرسول ﷺ، ليلة الإسراء والمعراج حدثه الله سبحانه وتعالى بصوت عليّ حتى يذهب غربته. . وقلت: إن أحدهم اعترض على عليّ فمسخ كلباً وانقلب آخر إلى امرأة. . وذهب وتزوج رجلاً وأنجب سبعة أطفال ثم عفا عنه الإمام فعاد إلى حالته الأولى. . وأحس أن الأمر لم يستمر سوى عدة ثوان(!!!) كنت تقول: عندما كان في القماط جاءت حية خاف منها أهل المدينة وهربوا، وذهبت الحية إلى بيت أبي طالب، ومد عليّ يده من قماطه ومزقها إرباً ومن هنا سمي حيدر (حية بالعربية ـ در بالفارسية معناها ممزق فيكون معناها ممزق الحية طبعاً كان أهل المدينة آنذاك يستخدمون الفارسية!!!). . نعم. يا أبي ونعم يا أمي هذا الكلام كتبه علماؤكم. . وهل كان كتاب بحار الأنوار ومنتهى الآمال من العوام؟! عليّ هذا الذي تصفونه هو نفس (رستمنا) وعليه رتوش إسلامية. . «عليُّكم» هذا يهم الصوفية أو أبطال الرياضة وصار رمزاً في الخانقاوات وبيوت المصارعة الإيرانية.

وأنا ـ يا أبي ويا أمي ـ لم أستطع أن أقبله زعيماً لي. . أريد زعيماً واقعياً وحقيقياً. . يكون إنساناً يعيش على الأرض من

جنسنا . . أما بالنسبة للإنسان الأعلى . . فهو لا يهم الإنسان العادي بشيء، لا أستطيع أن أتبع إنساناً يدخل من باب مغلق، ويمسخ أعداءه صراصير بغمزة من عينيه، أو يكون حاضراً في ليلة واحدة ضيفاً في سبعة أماكن مختلفة وفي وقت واحد . . لا يمكن أن يكون هذا إمامي . . كما أن الفضائل الإنسانية التي رويت عنه لا تنفعني . . ففي الهند أشخاص يعيشون ستين يوماً على جوزة واحدة . . تقول: لقد نام على فراش الرسول ﷺ في تلك الليلة . . والله يباهي ملائكته بهذه الفدائية كل يوم . . لكن الخلاصة أليس هو الذي كان يواجه الموت ويستقبله طوال عمره؟! وفي نفس هذا العالم الذي يعيش فيه، بل وفي نفس المجتمع الذي يعيش فيه نرى أشخاصاً يضحون في سبيل ما يؤمنون به . . ويضحون أكثر منك أنت المؤمن بهذه التضحية . . ماذا لديك بعد ذلك لتقوله عن عليّ؟! لا شيء: إلاَّ السب لي ولأمثالي، سب من قبيل . . يا ملحد . . يا عديم المذهب، يا من جلست مع الكلاب وضاع دينك!!

وهذا ليس مقنعاً يا أبي ويا أمي! أين مدرسة عليّ الفكرية؟! أين رؤية علي الكونية؟! أين أسلوب علي وسلوكه؟! أين وعي الفكر عند علي وروحه التي لا نهاية لأبعادها؟! ينبغي على الشيعي أن يدعو العالم إلى مدرسة علي ومذهب علي بعلمه وتقواه وفدائيته وتضحياته وإيثاره . . ينبغي أن يدعوه إليه ويرغبه فيه . . ليس بالأسلوب الذي تقومون به وتنفرون الناس من التشيع.

إن فاطمة التي عرضتموها عليّ أنا ابنتكم . . وزينب التي دللتموني عليها لكي أتبعها . . هذه «الفاطمة» عبارة عن امرأة مريضة

بذات الجنب ودائمة الشكوى من هذا المرض. . وكان السبب في نواحها وشكواها الدفاع عن زوجها وحقها الذي هضم. . وليس الدفاع عن حق الناس. . كانت شكواها بالنسبة للخلاف بين علي وأبي بكر وعمر على الخلافة. . كانت تدافع عن عليّ أنها زوجة علي. . وكانت عائشة تدافع عن أبيها أبي بكر «هكذا كنت تقوليه لي» ثم أصبح كل عملها في الدنيا أن تبكي وتشتم، وأصبح كل همها أن تسترد فدك المزرعة التي ورثتها عن أبيها. . ولم يحدث. . إذا كنت قد قلت لي شيئاً آخر عن فاطمة فاخبريني به. . قولي لي ماذا قلت؟! وإذا كان هناك شيء آخر مكتوب عنها في موضع آخر فأعطيني إياه أقرأه لأعرف شيئاً آخر!!

وزينب التي تحدثت معي عنها، كانت (سيرتها) تبدأ صبيحة عاشوراء تخرج من الخيمة إلى حيث الشهداء وتبكي وتصرخ. . ثم تعود إلى الخيمة، وبعد ظهر نفس ذلك اليوم. . فُقدت تماماً. . اختفت. . فقدتها أنا وأنت والتاريخ والكتّاب. . جميعاً. . لا ندري ماذا حدث لها بعد ذلك. . حسناً. . كل أخت تبكي مصيبة أخيها، تحس باللوعة، بل وتحترق نفسها. . هل قلت لي شيئاً آخر؟! هل قلت لي ماذا فعلت زينب بعد عاشوراء؟! وقبل عاشوراء ماذا كان عملها؟ من كانت؟! أنت لا تعرفين وأنا أيضاً لا أعرف. . وفي الكتب التي لدي والتي لديك لا يعرف كُتّابها شيئاً. . تقولين: موجود في بعض كتب المتخصصين والعلماء العظام. . حسناً. . مالي أنا إذن. . ومالك أنت. . هذا هو دينك التخديري الذي كان ينسى الدنيا ويهدم الدنيا. . حتى تكون حياتك في الآخرة عامرة. .

أي دين هذا الذي يدلني ويدلك على عدم البناء هنا حتى تحصل في الجنة على قصر من الياقوت واللؤلؤ. . كان هناك أحد هؤلاء السادة. . كان رجلاً (لذيذاً) وكان «مملاً» جداً وعالماً جداً. . أخذ يذكر في كتاب هذا الدعاء الذي ألفه، أن أي شخص يقرأ هذا الدعاء يعطيه الله في الآخرة سبعين قصراً من الياقوت. قلت: إنني طوال عمري أصلي وأدعو. . خذ أنت هذه القصور السبعين في الجنة. . وسوف أتمدد هناك تحت شجرة، وفي مقابلها أعطني حجرة واحدة مساحتها ١٢ م^{2} فقط في جنوب المدينة. . هذا هو الاستنباط الحق!! إن المذهب والولاية بالنسبة لك هو مجرد حب عليّ. . لكني أبحث عن ولاية تجعلني بالرغم من النظم الجارية التي تحكم البشرية والإنسان والتاريخ ذا نصيب من الرعاية والقيادة وولاية العدل والإنسانية. . لكنك تقدم لي ولاية فحواها: أولاً: ما هي العلاقة بين الله وبين علي في الخلقة؟ وهذا أمر لا يهمني. وثانياً: إن محبة عليّ ذات أثر كيميائي على الإنسان بحيث إذا كان الإنسان ممتلئاً بالشر والسوء تتبدل كل تلك الشرور إلى طيبات وحسنات[١] وقلت: إن الله نفسه قد قال «إذا كنت تحب علياً فأنت في الجنة مهما كانت ذنوبك ومهما كنت عاصياً لله وإذا كنت لا تحب علياً فأنت في النار ولو كنت مطيعاً لله»[٢] وما هو عصيان

---

(١) فسر بعض مفسري الشيعة الآية الكريمة ﴿يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ سورة الفرقان، الآية: ٧٠ هكذا: أي أولئك الذين يتألمون أكثر في سبيل عليّ.

(٢) انظر كتاب «دفاع عن الحسين الشهيد» من تأليف حجة المسلمين جناب السيّد: محمد علي الأنصاري.

الله؟! إنه عصيان الناس. . أي الظلم والخيانة. . أي التعدي على حقوق الآخرين. . هذه هي ولايتك. . لكني أبحث عن ولاية تنجيني من ولاية الجور والانحراف والفساد.

أبي. . أمي. .

لقد قمتما بتعليمي «الإمامة» وقلتا لي: إن الإمامة تعني أن الرسول جعل ابن عمه من بعده خليفة له ونصبه رسمياً، ومن بعده صار أبناؤه تلقائياً وبناء على عامل الوراثة والقرابة من شخص الرسول حكاماً على الناس وبشكل اتوماتيكي. وبعدها قال عدد من أشباه البحّاثة من أصحاب المصلحة: إن هذه الإمامة الوراثية من صنع الإيرانيين الذين نسجوها على نمط نظمهم الملكية القديمة(!!) على كل حال أنا أسأل: ما فائدتها الآن؟! وماذا عليّ أن أفعل؟! وبماذا تجديني هذه العقيدة؟! وبماذا تجدينا أو تجدي البشرية اليوم؟! إننا نؤمن بأنه من بعد الرسول وحتى سنة ٢٥٠ للهجرة[١] ينبغي أن يحكم هؤلاء الأشخاص الإثني عشر!! ألم يحكموا؟! حسناً جداً. . سلمنا. . والآن ماذا ينبغي أن نفعل؟! وماذا تقول لهذا الإنسان الموجود الآن؟! ماذا نقول لهؤلاء الناس؟! ما الفرق بين الإمامة وسائر النظم؟ إن ذلك الذي بايع أبا بكر قد مضى لحاله؟! والذي بقي على وفائه لعليّ ذهب أيضاً. . ليسوا موجودين الآن. . أولئك الذين بقوا على وفائهم لاختيار عليّ. . وأولئك الذين بقوا أوفياء لأبي بكر. . وأولئك الذين لم

---

(١) تاريخ غياب الإمام الثاني عشر محمد بن الحسن العسكري. المترجم.

يفوا لأي منهما. . ووفوا بالنسبة لأشخاص آخرين مرتبطين بهم ذهبوا هم أيضاً، وأنت جعلت كل فكرك وذكرك على أن الحكومة الحقة هي لهؤلاء دون أولئك. . عندك كل هذه الحساسية بالنسبة للحكومة الحقة. . لكن في التاريخ!!

ثم قلت: إن هؤلاء الأئمة شخصيات معصومة ميتافيزيقية ليسوا من جنسنا أو من جنسك، هم «ما فوق الإنسان» ليسوا حتى من قبيل «الإنسان الأعلى» هم أطهار ومقربون في حضرة الله سبحانه وتعالى حتى نتوسل بهم في الدنيا وننجو في الآخرة من جهنم والحساب والكتاب والعدل الإلهي!!

لكني يا أبي ويا أمي أبحث عن إمام يصلح لإنسان اليوم ومصيره المشؤوم، وبه ينجو الناس المعرضون دائماً للذبح والتضحية بهم على أيدي حكومات الظلم والجور والتفرقة والاستعمار والاستغلال والاستبداد، فأنا مهموم بهم، وبكل أولئك المهتمين بالدفاع عنهم وخلاصهم. . وأحس بمسؤوليته. . فأنا أبحث عن قيادة مبنية على العدالة ومبنية على الحرية والإنسانية.

وإمامتك ليست على هذا النمط. . إمامتك إثنا عشر شخصاً تعرفهم أنت عن طريق عد الطابور (في سنوات دراستنا كان عندنا معلم يقول: عدْ الأئمة الإثني عشر. . فكنا نعدهم وفي المرة الثانية كان يقول: عدهم عداً عكسياً. . وكل من كان يعد بشكل صحيح. . دلَّ هذا على حسن عقيدته في الإمامة. . وكانت درجته أيضاً عشرين من عشرين).

هذا وأمثال هذا، وكثير غير هذا هو الذي تدعوني إليه باسم الدين وباسم التشيع وبإسم هذه الشخصيات العظيمة. . وتدلني عليها. . وهي الموجودة داخل عقلك. . وفي كل هذه الشعائر والأعمال التي تقوم بها. . وبالنسبة لي ولإنسان اليوم الذي يبحث عن العدالة ويبحث عن الحرية ويبحث عن المسؤولية الإنسانية وعن حق الانتخاب وحق تقرير المصير في صنع حياته. . ويبحث عن إيمان يكون عند كل إنسان يستطيع هو نفسه أن يصنع قدره في الدنيا وفي مجتمعه. . ماذا لديك لتقوله؟!

أبي. . أمي. . لنرَ ما هو الصحيح وما هو غير الصحيح، لكن لسنا من الباحثين، نحن نريد أن نعيش، ولدينا أشغالنا، ولقد توصلت أساساً إلى أن مصيرك ومصير أمثالك الحالي يدل على أن ما نعتقده وما نقوم به من أعمال على أساس هذا الاعتقاد. . لا يدل على موقف ما، كما أنه لم يقدك إلى موقف ما. . إنك تبرر الفقر وتبرر الجوع على أساس أن الجائع في الدنيا محبوب من الله وأن رسول الإسلام كان يربط بطنه بحجر من شدة الجوع، إذن فجياع الدنيا ينبغي أن يكونوا شاكرين في جوعهم، وعليك إذن أن تمدح أولئك الذين أوقعوك في الجوع على أساس أنهم سبب سعادتك ونجاتك وحسن حظك في الآخرة، وأن تكون ممتناً لأولئك الذين جعلوا عليك الدنيا سجناً فقد أدخلوك في عداد المؤمنين والصالحين والناجين بعد الموت، وألقِ اللقمة التي في يدك بعيداً حتى تحصل في الآخرة على لقمة ألذ!!

يا أبي. . ويا أمي. . إنني أرى من يقول: ألقِ باللقمة من

يدك . . وما هو الهدف من قوله هذا وأنت لم تفهم، ولم تخرج من هذا الإطار الضيق لحياتك، لأني أرى من الذي التقط هذه اللقمة التي كانت السبب في أن ألقيتها من يدك عبادة الزهد والدين التخديري . . وأنا يا أبي ويا أمي . . كابن لكما لن أغفر لكما أبداً على أنه في مملكتك وفي بلادك وباسم دينك وباسم تشيعك لا توجد مدرسة أو جامعة . . لا . . لا أريدها . . بل لا توجد مكتبة . . لا بتلك الخصائص التي تؤمن بها أنت . . ولا بتلك الخصائص التي أؤمن بها أنا . . هذا لكي أذهب وأقرأ . . لكن تقام تباعاً أماكن دينية أخرى متجاورة من أجل أمور أخرى . . لا يهمني أمر واحد منها ولا ينفعني أمر واحد منها . . ثم إن هؤلاء الذين تسبهم وتشتمهم وتسميهم فاسدين . . أرى أنهم قد أعدوا كل شيء من أجلي ولا سبيل أمامي إلاَّ أن ألجأ إليهم . . لا . . هناك طريق آخر . . أن أجلس إلى جوارك واهترىء . . وأحرم من الشمس . . حتى أقوم بتنفيذ كل مناهيك!!

حسناً . . الآن لا أدري ماذا أقول، ونيابة عن من أتحدث فلم أعد بعد ممثل ذلك الجيل الذي كنت الآن أبلغكم رسالته؛ لأني لا أشاركه اعتقاده، ولا أنا أستطيع أن أتحدث نيابة عن الكتلة والشريحة والشخصيات والمحافل المذهبية في هذا المجتمع؛ لأنهم لا يقبلونني ممثلاً عنهم . . ويعتبرونني بلاءً نزل بهم يسألون الله رفعه . . لكن الآن احكموا أنتم . . في أي وضع أنا؟!

أُريد أن أقول لزملائي في المدرسة، لزملائي في العمل، لأساتذتي، للفنانين والمفكرين، للمؤمنين بالأيديولوجيات

المختلفة، لقراء الأعمال العظيمة المترجمة، وشوامخ الفلسفة الإنسانية والديموقراطية والتحرر، ولأنصار العدالة وأولئك الذين يحسون بمسؤوليتهم عن خلاص البشرية وهم من طبقتي لكنهم ليسوا مؤمنين بالدين، ويعتبرون الدين عاملاً من عوامل انحطاط المجتمع. . أريد أن أقول لهم: ليس الإسلام هكذا، إن ما حفظ علاقتي بالدين هو عقيدتي العلمية ومسؤوليتي الإنسانية فحسب، وإلا فأنا لا أترزق من الدين. . ولا أنا عن طريقه أظفر بحيثية أو مركز اجتماعي، بالعكس بسبب عقيدتي الدينية أتعرض لكل هذه المصائب، إنني أؤمن به كحقيقة لا مصلحة عمل أو مصلحة اجتماعية واقتصادية. وأنا أيضاً مفكر مثلك أؤمن بأهدافك تلك وشعاراتك، إنني أيضاً أهدف وأسعى إلى اجتثاث الظلم والتفرقة من جذورها، أن أضمن للإنسان حريته، وأبحث أيضاً عن دين يقضي على الفقر والتفاوت الطبقي، أبحث عن مذهب يمنح البشر النجاة والحرية في هذه الدنيا، أبحث عن مسؤولية تعد للجميع في هذه الدنيا الحياة والثقافة والكمال، وأبحث عن مذهب يقيم ميزان العدالة في مجتمع اليوم وقبل الموت، ومن أجل هذا في حد ذاته أنا مسلم، ومن أجل هذا نفسه أنا شيعي.

قال لي أحد طلابي بلهجة ذات مغزى: هل المذهب الشيعي في الواقع مذهب تقدمي وثوري كما تفسره؟ أو أنك تفسره هكذا على سبيل المصلحة؟! قلت: أية مصلحة؟! إن ما حصلت عليه خلال النضال. . وخلال نشاطي المذهبي معلوم!! لقد فقدت مركزي العلمي الفكري وشبابي وراحتي وأسرتي وحياتي وعملي

ومستقبلي كل هذا فقدته في سبيل إيماني. . كما ترى. . وفي المقابل حصلت فحسب على مقدار من السب والتهم من أهل الإيمان. . وترى أنه لو كنت بدلاً من وقف كل حياتي على هذا الأمر سلكت طرقاً أخرى «مجللة بالعار لكنها تفضي إلى المدينة والبستان والعمران» لصرت في منصب اجتماعي، أو علاّمة جامعياً، ولصرت محترماً في أنظارهم، ولو أنني لم أتدخل في شؤونهم ولم أتوجه بكل قدرتي العلمية والقلمية إلى الله والمذهب وأُصول الإسلام والتشيع، لما تدخلوا هم أيضاً في أموري ولساعدوني ووقفوا إلى جواري!! وعلى أساس من مقياس منطقي أنت تحدس أنه لما كنت قد طرحت الدين في محيط المفكرين اللادينيين، وقمت بالدفاع عن التشيع بسلاح علم الاجتماع وأيديولوجية تقدمية إنسانية عصرية يقمع الدين بها دائماً، فإن أصحاب التشيع الرسميين والمدافعين التقليديين سوف يدافعون عني، وها أنت ذا ترى أن الواقع على العكس تماماً. . ومن هنا فإن ما يجذبني إلى الدين وإلى التشيع هو حقيقة عقلية وإنسانية لا مصلحة اجتماعية أو شخصية. وباعتراف «ارنست رينان[1]» المفكر العظيم الذي كفره رجال الدين المسيحي: إن «الإسلام هو دين الإنسان». وأنا أعتقد أن التشيع ليس فرقة مذهبية خاصة في مواجهة الفرق الإسلامية الأخرى (مثل الكاثوليكية والبروتستانتية في

---

(١) ارنست رينان (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢): أديب فرنسي. تخلى عن دعوته الإكليركية لينصرف إلى دراسة اللغات السامية وتاريخ الديانات. فقد إيمانه بالمسيحية وعبّر في كتبه عن آرائه العقلانية. زار لبنان وفلسطين وقام بأعمال تنقيب أثرية (المصحح).

المسيحية أو السنة والاسماعيلية والزيدية والأشعرية والمعتزلة. . أو السنة والشيعة بالشكل الذي تحولنا إليه في الإسلام اليوم). وليس مذهباً «يحتوي على الإسلام بالإضافة إلى عناصر أخرى، أو أن أصول الدين فيه شيء وأصول المذهب شيء آخر. . أو أن الإسلام ثلاثة مبادىء والتشيع هو الإسلام بالإضافة إلى مبدأين. . لا . . التشيع هو الإسلام ولا شيء آخر، التشيع هو نوع من فهم الإسلام. . أي نوع من الفهم؟! فهم تقدمي مضاد للأرستقراطية والعرقية والطبقية وحاكمية البشر. . كان التشيع من البداية حركة وقفت في مواجهة انحراف المسيرة الاجتماعية لمدرسة الإسلام وروحها ووجهتها ورؤيتها الحقيقية، وصارت عقبة في وجه التسلل الواعي وغير الواعي للعناصر العرقية والطبقية والأرستقراطية والفكرية المضادة للإسلام، وجاهدت للحفاظ على سنة الرسول الأعظم ﷺ في مواجهة إحياء السنن الجاهلية. . وكان ما حدث أن كل قوى المجتمع التقليدية قد قبلت الإسلام كإيمان غيبي وديني ميتافيزيقي، لكنها منحت الاستقرار للنظام الطبقي في المجتمع والنظام الحاكم في سياسة المسلمين ـ كما كان موجوداً في التاريخ ورائجاً في كل مكان. . ومن ثم استند التشيع على مبدأين «العدالة» و«الإمامة» وكانا الهدف الأساسي للإسلام ولبعثة الرسل عليهم السلام الإبراهيميين وحددهما كشعار لحركته. .

إنني آمنت ـ لا كشيعي ورث التشيع أو متعصب مذهبي ـ بل كمثقف مسؤول وملتزم إجتماعي وذي أحاسيس إنسانية وآمال تقدمية مضادة للرجعية ومضادة للطبقية مثيلة لما تؤمن به. .

وتوصلت عن طريق البحث العلمي والتاريخي، ومعرفة مدرسة الإسلام الفكرية وتاريخ الإسلام ومعرفة الأديان السابقة والأيديولوجيات الجديدة، إلى هذه الحقيقة العلمية القائلة إن التشيع ـ من الناحية الاعتقادية ـ هو أكثر التفسيرات تقدمية في مدرسة الإسلام الفكرية، ومن الناحية الاجتماعية والسياسية كان أكثر الأجنحة تقدمية وجماهيرية في تاريخ الإسلام.

إنني أسألك أنت. . هل هناك مدرسة فكرية ثورية، أو مدرسة فكرية جماهيرية. . أو أية مدرسة مطالبة بالحرية تؤمن أنت بها. . وأياً كانت أصولها الفلسفية والعلمية والاستراتيجية فلا شأن لي بهذا. . هل إذا قمت بتلخيص كل أهدافها وشعاراتها. . ألن تكون محصورة في هذين المبدأين وأنها تهدف إلى القيام بهذين الأمرين؟! وأياً كان مذهبك هذا جماعياً أو مثالياً أو مادياً نقدياً أو وجودياً أو إنسانياً أو ديموقراطياً ملتزماً أو ليبرالياً ثورياً. . أعنده مبادىء سوى أنه يريد أن يطبق هذين المبدأين عملياً. . أولهما: أنه يريد أن يحول نظام الاستغلال والتفاوت الطبقي والظلم الاجتماعي والتفرقة الاجتماعية إلى نظام مساواة وعدالة. وثانيهما: أنه يخلص المجتمع من التسلط الاستبدادي والارستقراطي. . ويتمتع بقيادة ثورية وإنسانية نقية؟! مبدأ يهدف إلى تغيير النظام الطبقي في المجتمع، وآخر يريد أن يغير نظام الحكم في المجتع!! الإجابة. . ولم لا. . أقول: لكنك تظن أن المبادىء المذهبية للتشيع هي الرياضة الصوفية والعبادة والنواح والندب؟! أليس الأمر هكذا؟! إنك لا تستطيع أن تصدق أنه مذهب وأساسه مبدآن. . وكل التشيع قائم على هذين المبدأين:

١ ـ العدل.

٢ ـ الإمامة.

أليس هذان هما ما تبحث عنهما في المذاهب الفكرية الأخرى؟! أليسا هما ما تتمناهما لمجتمعك وللبشرية؟! إن التشيع قائم على هذين الأصلين.. لكن ماذا أفعل وقد أخرجوهما عن معنيهما.. أي احتفظوا بالاسم وقضوا على المضمون!!

ولو كان هؤلاء الخبثاء الذين جعلوا هذين الأصلين بلا معنىٰ ولا أثر قد قضوا على الإسمين فحسب بدلاً من أن يجردوهما من معنيهما.. ووضعوا بدلاً منهما مصطلحاً آخر كالشيعة والعبادة والرياضة وغيرها.. لاستطعت أن أخاطب المفكرين اليوم وأصرخ في الجماهير: لا.. ليست هذه هي مبادىء التشيع.. إنها العدل والإمامة. لكن مصيبتنا في أنهم تركوا هذين اللفظين لكنهم مسخوا معانيهما بشكل أصبح معه عدالتهما لا تهم العدالة ولا إمامتها تهم الإمامة، إمامتها من نصيب الشاه عباس[1] وعدالتها من نصيب الظلمة، وكل ما أصبح من نصيب جماهير الشيعة المظلومة، بعد ألف سنة من الجهاد والتعذيب والعشق والصمود والخضوع طوال القرون السوداء للخلافة الأموية والعباسية وحكم المغول، هو ظلم الخان وجور الخاقان.. هذه المرة في لباس «محبة مولانا علي عليه السلام»!!

---

(١) يضرب شريعتي دائماً بالشاه عباس الصفوي مثالاً للمتكلف في القيام بشعائر المذهب ظاهرياً فحسب وعدم الاهتمام بالجوهر. المترجم.

لقد مسخوا كل شيء.. احتفظوا بظاهره وغيروا معناه وروحه واتجاهه، غيروه في اتجاه حفظ مصالحهم ومنافعهم الطبقية والسياسية والاقتصادية.. وكل مصطلح مذهبي وعاء يحتوي على فكر وعلى عقيدة.. أفرغوه من المحتوى.. وجعلوه هباءً أجوف لا لب فيه ولا روح.. وليتهم أفرغوه وتركوه بلا لب، لكنهم حشوه بالمواد المخدرة الخُرافية المضادة للإسلام والتشيع وجعلوا كل شيء مجرد ألفاظ: التوحيد والقرآن والدعاء والحج والعدالة والإمامة والولاية وعليّ والحسين والتشيع والمعاد والشفاعة والقضاء والقدر والتوسل وانتظار المهدي.. بل وألفاظ مبهمة غامضة خالية أو ممسوخة ومخدرة، وأحياناً مضادة تماماً لمعناها الأصلي.. وتماماً في عكس الاتجاه الذي كانت عليه.

وأنت يا أخي ويا أختي ويا زميلي ويا من في طبقتي كاتباً كنت أو مفكراً، عالماً كنت أو مترجماً أو فناناً أو اشتراكياً متحرراً ذا نزعة اجتماعية، وتقدمياً محباً للعدالة وطالباً للقيادة والأخوة وآملاً في نجاة البشر وخلاصهم.. إن ما تفهمه من هذه المصطلحات وما تعرفه باسم الدين والتشيع وما تراه هو نفس تلك الأوراد والألفاظ والمفاهيم المخدرة والمحرفة الرائجة، هو نفس تلك الصورة التي رسمتها أيدي العدو المغرضة، أو جهل الصديق في ذهن أبيك وأمك وبيئتك عن هذه المدرسة الفكرية.. ليس هذا هو الإسلام، وليس هذا هو التشيع.. ليس هذا هو الله والمعاد والإمامة والعدالة.. والحج.. إلى آخره.. ليس هذا الذي تراه وتتحدث عنه وتعترض عليه.. لك الحق في أن تعترض عليه.. لكن كلمتي هي أن ما تعترض عليه ليس حقاً.

أيتها السيدات.. أيها السادة:

أريد أن أقول لأخي المفكر هذا، ولأختي المفكرة، للمتعلم التقدمي المنطقي النافر من الدين. . أُريد أن أقول له: إن الإله الذي تتحدث أنت عنه واضع دين يخدر البشرية. . ويمنع من المسؤولية الحقة، ويدفع البشر إلى نذر النذور. . ويتملقوه. . ليس هو إله الإسلام، فليس التوحيد نظرة ميتافيزيقية مثالية فحسب، ليس فقط بهذا المعنى الذي أؤمن به: إن الله في الوجود واحد ليس أكثر. . إن التوحيد بيننا هو رؤية كونية. . رؤية تاريخية واجتماعية وبشرية. . هو البنية التحتية لوحدة الوجود، والوحدة العرقية والطبقية. . وهو مصادر للشرك القومي والفكري والإجتماعي والانساني! إن إله الإسلام محب «للعزة» و«العلم» و«الجديد» و«الجهاد» و«المسؤولية» و«الإرادة الانسانية» و«الحرية» و«الثورة» و«الحضارة» و«سيطرة الإنسان على الطبيعة» والإنسان هو حامل أمانته، حامل «روحه» و«خليفته في الأرض» و«الذي سجدت له كل الملائكة»!!

أيكون الإنسان حبيبه وتكون هناك ذلة؟! أيدعو البشر، قائلاً: «تخلقوا بأخلاق الله» وتكون هذه دعوة إلى ذلة؟!

وفي التشيع «الله عادل» بمعنى أن العالم قائم على أساس العدل؛ لأن الله هو خالق هذا العالم، والوجود تجليه، ونظام الوجود تجلي إرادته. ولما كان المجتمع قائماً على أساس نظام الخليقة وناموسها، فالمجتمع الصحيح والطبيعي لابد وأن يكون قائماً على أساس العدالة. وينبغي أن تكون حياة الإنسان تجلياً

للإرادة الخاصة لألوهية عادلة. إذاً «الله عادل» تعني أن العدل رؤية كونية، بمعنى أنه إن لم يكن المجتمع قائماً على أساس من العدل ثم يكون مجتمعاً مريضاً مضاداً للدين ومضاداً للتشيع.. يكون مجتمعاً غير طبيعي محكوماً عليه بالزوال ومخالفاً لنظام الكائنات.. هذا هو معنى العدل. «الله عادل» ليست بحثاً ميتافيزيقياً وفلسفياً متين الصلة بالحياة والدنيا، وغريباً عن مفاهيم الظلم والعدل في المجتمع البشري. على العكس، عبارة إنّ «الله عادل» تعني أن العدل صفة إلهية، تعني أن نظام العدل هو فحسب النظام التوحيدي والديني، أي أن العدل هو البنية التحتية للوجود والطبيعة والمجتمع والعلاقات البشرية.

والشيعي الذي كان دائماً طوال التاريخ من ضحايا الظلم ـ لأنه كان في قتال دائم ضد الظلم وعدم المساواة والعدوان ـ يتخذ من العدل مبدأ لمذهبه.. يتخذه مبدأ بهذا المعنى، لم يكن هذا العدل مثلما هو اليوم مجرد عقيدة ميتافيزيقية وبحث فلسفي وشغل للعلماء والحكماء.. كان شعاراً للنضال ضد الظلم.

أريد أن أقول:

أيها الأخ، أيتها الأخت:

إنني كمسلم، اعترض طوال تاريخ الإسلام على خلافة الجور التي تدعي اتباع سُنة الرسول ﷺ، يعني أنه في الحياة الإجتماعية وحتى نهاية البشرية.. ينبغي أن تكون هناك قيادة على أساس مبدئية الإنسان المعصوم، أي طاهر النفس، ليس خائناً دنساً

متهاوناً، تكون قيادة البشرية منوطة بهذه المدرسة وهذه الحركة وهذا الاتجاه.

إن ذلك الإله الذي أؤمن به، وذلك الدين الذي أؤمن به، ليس دين تبرير الفقر، هو الدين الذي يعتبر الفقر جار الكفر اللاصق[١] يقول أبو ذر أعظم ربيب لرسول الإسلام وعليّ: «عندما يدخل الفقر من باب دار، يخرج الدين من الباب الآخر» وعليّ الذي هو تجسيد للإسلام يحذر ابنه قائلاً: «بني استعذ بالله من الفقر فإن الفقر منقصة من الدين ومدهشة للعقل وداعية للمقت».

إذاً فذلك المذهب الذي ينمو في الفقر والشقاء ليس مذهبنا، هذه مزاولة رياضية فردية وصوفية هندية ومسيحية، فالإسلام يوجد في العزة والثروة والقوة والجهاد، وعليّ ذلك، عليّ الذي تقوم بتعداد فضائله الشخصية.. ليس هو الشخصية التي أؤمن بها، فعليّ الذي يخصني هو عليّ الذي احتوى على قيم القمم السامية التي ظلت البشرية تبحث عنها على وجه الأرض ولا تجدها، فاضطرت إلى صنعها في هيئة أرباب الأنواع المفترضين وأخذت تعبدها: إله القوة، إله الفكر، إله التعلم والكلام، إله الجمال والفتنة، إله العشق، إله الوفاء للبشر، إله القهر وكف النفس، إله لطف الإحساس وجمال الروح، إله الشدة في الحق، إله العدالة الإنسانية.. كلها تجلت في وجوده، كان حاكماً، وعند توزيع عطايا المسلمين، يعطي لعثمان بن حنيف الصحابي الذي ظلَّ وفياً

---

(١) كاد الفقر أن يكون كفراً.

له ثلاثة دراهم، ويعطي لغلام عثمان نفسه أيضاً ثلاثة دراهم، هذا هو عليّ الذي يخصني، وهذا هو نظامه الاقتصادي، و«اشتراكيته الاقتصادية الحقيقية والمطلقة».

وهو نفسه، الذي يربي روحه في محراب الدعاء، وفي الجهاد يقمع العدو، وداخل المجتمع الإسلامي يناضل المنافق الظالم في سبيل الإسلام؛ بائع الرقيق والمستغل حتى ولو كانوا مسلمين، وهو الرجل الذي أباد أربعة آلاف شخص من ظاهري التدين الذين يتضرعون علناً أمام الله وترى أثر السجود ظاهراً على جباههم.. ولم ينج منهم سوى تسعة أشخاص[1] أي إنسان يجرؤ على هذا.. هو نفسه يقول: «أما بعد حمد الله والثناء عليه، أيها الناس فإنّي فقأت عين الفتنة ولم يكن يجترىء عليها أحد غيري بعد أن ماج غيهبها واشتد كلبها»[2] إنه لا يخشى آراء العامة من المؤمنين وإحساساتهم ولا يعرف لعبة المصلحة، ويقتل أربعة آلاف شخص من المتدينين الزهاد والعباد وقراء القرآن.. وكانوا قد وقفوا في مواجهة الحق، وحتى وإن كانوا غير مغرضين وكانوا أداة غير واعية في أيدي أمثال عمرو بن العاص والسياسات الأموية!! ليكونوا حسني النية.. إن انعدام الإحساس في حد ذاته آفة؛ تماماً

(١) قال الثعلبي: لقد رأيت الخوارج حين استقبلتهم الرماح والنبل كأنهم معز اتقت المطر بقرونها، ثم عطفت الخيل عليها من الميمنة والميسرة، ونهض علي في القلب بالسيوف والرماح فلا والله ما لبثوا فواقاً حتى صرعهم الله كأنما قيل لهم: موتوا فماتوا (ابن قتيبة: الإمامة والسياسة ج١، ص١٢٨ نسخة طه الزيني). المترجم.

(٢) النص من نهج البلاغة المجلد الثاني ص٦٠٥ نسخة حسن تميم بيروت ١٩٦٣. المترجم.

كانعدام الشرف. . إنهم على كل حال آفة الحق.

والحق في لغة علي ليس بمعنى القوة، بل لا يغني عنه حق عليّ وحكومة عليّ، إذ نعلم أنه تنازل عنه بكل بساطة، بل الحق يعني حق الناس وموت الزور، هو نفسه يقول عنه: «اشعر قلبك الرحمة للرعية والمحبة لهم واللطف بهم ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم فإنهم صنفان، إما أخ لك في الدين وإما نظير لك في الخلق»[١].

أريد أن أقول:

إسلامي، ليس هو إسلام الأثرياء، وليس دين رياضات فردية من أجل النجاة الشخصية. . وبعد الموت، هو إسلام أبي ذر وتشيع أبي ذر، والذي كان يرفع شعاراته لا ضد نظام الكفر بل ضد نظام عثمان خليفة الإسلام وجامع القرآن وناشره، إنه يثور ضده ويقاتله!! هذا هو التشيع، وشعاره ليس العبادة ولا هو تفسير خاص لهذا الكلام ولهذا المبدأ ولهذا الغرض، إنه ضد الكنز. . ضد رأس المال أي الرأسمالية، الكنز أي جمع الذهب عن طريق استغلال الناس، هذا هو شعار تشيع أبي ذر ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾[٢].

---

(١) نهج البلاغة ج٥، ص٢٤ تحقيق حسن تميم بيروت سنة ١٩٦٤.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٣٤.

انظر: الأحبار والرهبان.. أي الشخصيات المتدينة العازفة عن الدنيا والعباد والمنزوين.. كان عثمان وكعب الأحبار[١]. الفقيه اليهودي حديث الإسلام الذي كان قد صار لعثمان عقلاً وأخذ يفسر القرآن لأبي ذر(!!) كانا يقولان: نعم، لكن هذه الآية نزلت في شأن رجال الدين والملاك الرأسماليين والنخاسين في الأديان الأخرى وكان أبو ذر يقول: في أي موضع من الآية يستنبط أنها متعلقة بالأديان الأخرى.. وبالرغم من أن بداية الآية تتناول الأحبار والرهبان، ومن المسلم به أنهم من أهل الكتاب، ولكن آخر الآية عام.. ويدل على أي شخص يفعل هذا باسم الإسلام أو باسم الكفر.. سواء باسم التوحيد أو باسم الشرك.. كل من يكنز الذهب والفضة. وعرض أبو ذر روحه للخطر من أجل نجاة الناس ومن أجل الخلاص من الجوع ومن الفقر والخلاص من التفاوت الطبقي ومن الأرستقراطية.. وظل في نضال ضد نظام كان قانونه القرآن وشعاره الجهاد، وكلاهما كان أداة في يد النهب والاستغلال، وذلك لكي يثبت لي ولك من المفكرين ويجعلنا نفهم أن الإسلام ليس دين الاستغلال.. ليس أداة تبرير الفقر وإرساء دعائم الطبقية!نعم.. هكذا إسلام الأثرياء!!

أريد أن أقول لهذا الجيل:

أختي، أخي المفكر.. إنَّ الحج الذي تحدثت عنه بصدق

---

(١) أبو اسحق كعب الأحبار (ت ٣٢هـ/ ٦٥٢م): تابعي من أقدم رواة الحديث. يمني الأصل. قربه معاوية. توفي في حمص (المصحح).

وسخرت منه. . هذا هو حج الحاج (إياه). . أما حج إبراهيم فهو موعد كل سنة وكل جيل من أجيال البشر مع إبراهيم. . أي موعد؟! وماذا يفعلون؟! إنه من أجل الحركة التي بدأها في العالم، كأنهم كل عام يعقدون معه الميثاق، وكل جيل في الحياة يعاهده. . أية حركة؟! إنها حركة إقرار التوحيد وإفناء الشرك للمرة الأولى!!

سوف تقولون: لا شرك الآن. . لقد حُطمت الأصنام ولا توجد أصنام الآن. . لماذا؟! بل توجد. . أكثر وأقوى مما كانت دائماً!! ليس إبراهيم شخصية تاريخية فحسب، إن الأنبياء عليهم السلام من بعده وحتى نبينا الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم هم أولئك الذين يواصلون طريقه، ومن ثم فإن طريق إبراهيم هو الطريق الذي ينبغي أن يسير فيه السائرون الآن، وحركته هي حركة الحياة، والشرك الذي كان يناضل ضده موجود اليوم أكثر مما كان موجوداً في زمانه، ويسيطر على العالم وأسوأ وأكثر قسوة، لكنه خفي!!

إن الحج تجلّ بشري عظيم، فكل سنة وكل جيل، يكلف كل إنسان بأن ينقطع عن حياته ونظامه الاجتماعي، وارتباطه واتصالاته، ويلقي جانباً بثيابه وعلاماته وألوانه الطبقية والعرقية والأسرية وكل الحدود والتعلقات الفارغة القبيحة التي أجبرت الإنسان على العيش بشكل معين. . ومزقت البشرية أرباً. . يلقي بها كلها جانباً، وفي مساواة حاسمة لا لون لها، يرتدي كفنه ويدخل مسرحاً شديد العظمة يلعب فيه كل إنسان دور إبراهيم وقصته المليئة بالحركة الشديدة الانفعال. . قصة هذا المهاجر المجاهد التاريخي، مسرح يلعب فيه كل إنسان الدور الرئيسي،

وفي القيام بتلك الشعائر الثورية التي تهز بعمق، شعائر الحج بكل حركاته وأحواله وأطواره يجدد الذكرى العظيمة لإبراهيم وهاجر واسماعيل ويجسدها. والحج تجل لمساواة البشر، ووحدة الشعوب والطبقات، والطواف عشق وتوحيد، والسعي عملٌ وجهاد، هو هجرة نحو المعرفة وعودة إلى الشعور ووصول إلى أول منزلة من منازل العشق والمنال، وعيد للدم ولتضحية اسماعيل بنفسه، وهو في النهاية عيد النصر الإبراهيمي لكل فرد على الشياطين الثلاثة: التاريخ والمجتمع والباطن!!

والمحور الأصلي للحج نقطة هي قبلة كل البشر، والنقطة المركزية للطواف، أي أصل كل حركات حياة الإنسان هو منزل هاجر.. ضريح هاجر. عجباً، جارية صحبت إبراهيم خطوة بخطوة يصبح عملها مثل أعمال ابراهيم كمناسك الحج وفرائضه، وتجدد كل سنة من قبل ملايين المسلمين.. نعم.. كل شيء فان إلا ما يكون لله.. فالله سبحانه يختار جندياً مجهولاً من بين كل رسله ومصلحيه، والمقربين إليه والأعزة لديه وكل أهل الدنيا ويجعل مدفنه إلى جوار بيته، ويعلنه مطافاً كل عام وكل جيل من التاريخ البشري.. من هو؟! إنه على خلاف ذلك المذهب الذي يعتبر المرأة إنساناً أدنى، حقيراً منبوذاً.. هذا هو الله يختار من بين كل هذه الوجوه في التاريخ.. يختار امرأة.. هاجر. جارية.. أم.. لتدفن بجوار هذه الكعبة، ويعلن مزارها جزءاً من بيته، ويأمر كل البشر حتى رسله العظام أن يطوفوا حول هذا البيت، هذا هو الحج، وكل منسك من مناسكه رمز ودرس وحكمة وتهذيب

وإصلاح، وفي الحج فحسب، يعرف المسلمون بعضهم البعض أفضل، ويفكرون من أجل خير بعضهم البعض وصلاحهم وخير عموم المسلمين، ويعزمون ويعقدون ميثاق التعاون والتواد والتآلف.

هذا هو الحج، الذي ذهبنا إليه بعدها ورأينا ماذا فعلوا، وماذا كانت جدواه، أي أناس ذهبوا، أكثرهم من أولئك الذين فعلوا ما اشتهوا طوال عمرهم بحرية وبلا قيد ولا وازع[1] أو مسؤولية.. وإلا وقد هددهم الموت، ومن أجل أن يدفعوا إتاوة إلى منكر ونكير في مكة في أواخر حياتهم.. جاءوا هنا.. ومن أجل هذا يذهبون في آخر العمر بحيث لا يكون ثمة عمل من بعدها قد بقي، ثم يعودون ليموتوا.. وهناك يقولون: لقد أدينا أيضاً هذه الفريضة، وكانت ديناً ألقيته عن كاهلي. لا أريد أن أقول: إن كل من يذهب إلى الحج هو هكذا، ففي بعض الأفراد أثر من الأخلاق الفردية، لكن عندما يكون الحسين وحيداً، وتكون الصهيونية أقرب إلى مكة من حبل الوريد، والفقر والاستعمار كلاهما حران مستريحان في العالم الإسلامي.. ما فائدة هذه التقييمات؟! منذ ألف سنة يقول لهم الإمام موسى بن جعفر عليه السلام: «ما أكثر الضجيج وأقل الحجيج» لم تكن نتيجة الحج هي ما رأيتها.. لقد ذهب أبوك وأمك وجيلك المؤمن، وعندما عادوا أردت أن ترى نتيجة وجدوى، لترى ما الذي تغير بعد الحج في طريقهم وعملهم

---

(١) وازع: مانع أو رادع.

وشخصيتهم، ثم رأيت أنه لا فرق هناك قط، وباكتساب لقب «الحاج» لا ننتبه إلى أنهم بدأوا من جديد بين أكثر انطلاقات التملق والنفاق والخيانة والزنا والتسيّب والانفلات، ثم رأيت أن النتيجة الوحيدة التي عاد بها وتستطيع أنت أن تراها. . أنك فتحت حقيبته. . وجدواه، كانت من أجلك ومن أجل أسرتك فحسب. . إنه أحضر بعض الهدايا، وجدواه الأفضل والاستفادة الكافية منه كانت فحسب من أجل الرأسمالية اليابانية التي كسبت من سنّة إبراهيم كاسر الأصنام!!

نريد أن نقول:

نعم، إن ما تقوله عن القرآن صحيح، لكن أي قرآن؟! القرآن كشيء يتبرك به في يد الجهل؟! القرآن كراية على رؤوس حراب الجريمة؟! أو هو القرآن ككتاب يصنع من قبائل بدائية مبعثرة في صحراء ـ وفيما لا يزيد عن ربع قرن ـ محددي مصير العالم وقامعي القوى العالمية، ويخلق في أقل من قرن ثقافة جديدة وثورية في الحضارة الإنسانية؟!

القرآن هو الكتاب الذي يبدأ باسم «الله» ويختم باسم «الناس» هو كتاب سماوي لكنه ـ خلافاً لما يظنه مؤمنو اليوم أو يقيس عليه ملحدو اليوم ـ يعد أكثر اهتمامه بالطبيعة والحياة والوعي والعزة والقوة والتقدم والكمال والجهاد! كتاب أخذت أسماء أكثر من سبعين سورة من سوره من قضايا إنسانية، وأكثر من ثلاثين سورة من سوره من ظواهر مادية، وهناك اسما سورتين فيه فحسب عن العبادات وهما الحج والصلاة!

كتاب حامله أميّ، بتعبير القرآن نفسه ما كان يعرف الكتاب وما كان يخطه بيمينه، وما كان يقرأ، ثم يقسم بالمداد وبالقلم، كتاب لا يقارن عدد آيات الجهاد فيه بعدد آيات العبادات، كتاب أول رسالة يقولها «القراءة» وفخر ربه بالتعليم، تعليم الإنسان بالقلم[١]، وهذا في مجتمع بدائي قبلي.. لا الكتاب ولا القلم ولا التعليم ولا التربية من الأمور المطروحة فيه!!

هذا الكتاب الذي منذ ذلك اليوم الذي نجحت فيه «حيلة العدو» و«جهل الصديق» معاً في ضم دفتيه، وجدت دفتاه مجال استهلاك، وعندما ترك «متنه» راج «جلده»، ومنذ ذلك الوقت الذي لم يعودوا بعد يقرأون القرآن «أي المقروء والقابل للقراءة»، استخدم للتقديس والتبرك وجلب الأسباب. ومنذ ذلك الوقت الذي كفوا فيه عن جلب دواء الأمراض الفكرية والروحية والاجتماعية منه[٢] صار وسيلة لشفاء الأمراض الجسمانية كألم الخاصرة وبرد الكتف، وعندما تركوه في اليقظة.. وضعوه فوق رؤوسهم عند النوم.. والآن: هذا هو ما تراه.. جعلوه الآن في خدمة الأموات، ورحمة ونوراً على أرواح الماضين، ويصل نداؤه من الجبانات.. ومن هنا فأنت لا تعلم يا أخي المفكر ولا تعلمين يا أختي المفكرة أية جهود بذلوها حتى يبعدوه من بين الأحياء، ويقطعوا أثره عن الحياة، ويسكتوا نداءه حتى في

(١) ن والقلم وما يسطرون.. فسر كثيرٌ من المفسرين «ن» بأنها اسم سمكة كان يصنع منها المداد.. واقرأ باسم ربك الذي خلق... علَّم بالقلم.. علم الإنسان ما لم يعلم» سورة العلق الآيات من ١ ـ ٥.

(٢) فإن فيه شفاءً من أكبر داء وهو الكفر والنفاق والغي والضلال.

ساحات الجهاد بل وفي حوزات (الاجتهاد)!!!!

قالوا: لا تعتبروا أن كلمة «قرآن» من مادة «قرأ» بل اتخذوها من مادة «قرن»، ونتيجة لهذا فهو ليس كتاب «قراءة» بل هو كتاب «اصطحاب»و«إلصاق بالنفس». قالوا: إن الأسرار المكنونة في النقطة الموجودة تحت الباء في «بسم» فحسب.. إذا أراد إنسان أن يفسرها فإن عمره لا يكفي!! قالوا: للقرآن سبعون بطناً كل بطن فيها سبعون أيضاً.. وهكذا.. وهذا صحيح، لكنهم فسروه على أساس أنه لا ينبغي أن تقترب منه، أي أن كل إنسان فتح القرآن وقرأه وفكر فيه وفهم منه شيئاً يدان، وكل ما أفهمه يعلن أنه مرفوض ومشكوك فيه.

قالوا: المعنى الحقيقي للقرآن عند الأئمة، في كتاب خاص مستور ولا أحد يعلم عنه شيئاً، وكان عند آل البيت ثم انتقل بشكل خفي بين الأئمة يداً بيد، وهو في النهاية مع الإمام الغائب، ومن هذا الخبر وهو صحيح يعني أنهم يفهمون القرآن أكثر من غيرهم وهذا طبيعي ومنطقي ـ استنتجوا أن القرآن كتاب غامض حافل بالأسرار وغير قابل للفهم بالنسبة للبشر.

قالوا: «كل من فسر القرآن بعقله فليتبوأ مقعده من النار» في حين أن قول الرسول ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»[١] أي بنظره وبرأيه هو، وهي كلمة علمية ومنطقية داخل

---

(١) انظر «كنوز الحقائق في حديث خير الخلائق» بهامش الجامع الصغير ج٢، ص١١٥. الطبعة الرابعة. البابي الحلبي. المترجم.

البحث العلمي. إن الباحث عند بحثه عن الحقيقة، ينبغي أن يفرغ ذهنه من النظريات الشخصية والآراء المسبقة، أو باصطلاح العلماء الأوروبيين «الحكم المسبق»، وهذا لكي يدرك المعنى الحقيقي للمتن الذي يريد أن يفسره، لا أن يطبق كل كلمة وتعبير قسراً على رأيه المسبق ويؤوله طبقاً لذوقه ورأيه الخاص. ترى كيف أنهم بذكاء جعلوا «الرأي» هو «العقل»، ولما كانت قراءة أي كلام أو كتاب وفهمه والعمل به أمور لا تكون إلا بالعقل، فقد خوفوا الناس من قراءة القرآن والعمل به وإلا احترقت مقاعدهم في النار. وبينما حرموا التفسير بالعقل خلافاً لهذا الحديث قاموا هم أنفسهم بتحريف القرآن كله برأيهم وتوجيهه وتأويله، وقدموه لنا في صورة كتاب كله إما مدح وتمجيد لبعض صحابة الرسول، أو سب وافتراء وشتم لبعضهم الآخر، بل إنهم لما كانوا يخشون هذا أيضاً فقد جعلوه كله بالإيحاء والكناية وبشكل غير مباشر بحيث أنهم لم يكونو أنفسهم ينتبهون إليه.

بل إنهم قالوا ما هو أسوأ من هذا بكثير، قالوا: إن القرآن الحقيقي في يد إمام الزمان (المهدي)، وعندما يظهر سوف يحضره معه والقرآن الموجود بالفعل، ليس هو القرآن الأصلي!! لقد حرف لقد حذفوا بعض الآيات منه و....[١]

هذا الكلام يحسم الأمر تماماً، ويا له من ذكاء أراد به أعداء

---

(١) ورد هذا الكلام في بعض الكتب ولكن علماء الشيعة الإمامية «الإثنا عشرية» ردوه وبرأوا منه جملة وتفصيلاً ـ وذلك في أكثر من ٦٧ كتاب صدرت لغاية عام ١٩٩١. (الناشر).

الإسلام أن يقطعوا الجذور، لأنهم كانوا قد فكروا إنه لكل هذا التمهيد للأرضيات من أجل أن يحبسوا القرآن عن الناس، ويسكتوا صوته، ويجعلوا فكره مجهولاً ومتروكاً، ويرجوا جسمه وجلده فحسب، فإن الخطر لا يزال قائماً في أن يأتي يوم ما يوجد فيه مفكرون مستنيرون لا يستمعون إلى هذه التمهيدات، ويقومون بفتح هذا الكتاب وقراءته واستلهامه، وفي هذا التشتت الفكري والتناقضات العقائدية وألاعيب التشرزم المذهبي إلى فرق وطوائف . . وأنواع الفرق «يتشبث المسلمون بهذ الحبل الإلهي» ثم يغلي الإسلام مرة أخرى من مبدأ القرآن، ويمنح مرة ثانية الوحدة والحياة والحركة والوعي والالتزام والاتجاه والازدهار الفكري للمجتمع المسكين الميت المريض الجاهلي والمشرك وعابد الأصنام والمتفرق والمنحط .

وهكذا كان أن اخترعوا هذه المأساة، وروجوا هذه الشائعة المشؤومة القائلة بأن القرآن الموجود ليس هو القرآن الأصلي، وأن القرآن غائب مثل الإمام الغائب، وأن القرآن ليس في متناول الأيدي، وجاهدوا في ترويج مثل هذه الفكرة التي تضمن فناء الإسلام وموت المسلمين إلى الأبد، بل ووفقوا في وضعها في أفواه عدد من العلماء العظام، وعكسوها في الكتب المشهورة والمهمة والرائجة، بل وجعلوا جماعة تؤمن بهذه المأساة، لحسن الحظ لم يقصر علماؤنا الكبار في هذا المجال، وعلى قلب رجل واحد اجتثوا هذه المؤامرة ذات الجذور من جذورها .

صديقي المفكر: أليس كل هذا دليلاً على أن العدو يخاف

من القرآن، وألا يكفي خوف العدو فحسب لكي يجعلك واقفاً على دور القرآن من الحياة والنجاة واليقظة والخلّاق[1]؟! أترى يا صديقي المفكر كم فعلوا من بلايا ومصائب؟! بل ترى ما الذي لم يفعلوه من هذه البلايا والمصائب؟!

لقد قاموا بعمل ما من شأنه جعل القرآن وهو كتاب قراءة وفكر وفهم وتنوير وحصول على طريق ونهوض وعمل ـ شيئاً مقدساً. مجال تبرك بحيث إن عمله الواقعي في «هداية» أتباعه و«بيان الحلول» و«مسؤولية الخيار الإنساني» انحصر فحسب في «الاستخارة» وأصبح واجب أتباعه نحوه هو التعظيم والتكريم والتجليل والتقبيل وعدم اللمس دون وضوء ووضعه في الأطر، وإلى جوار المرايا (في مجالس العقد) وفي رباط القماط وفي سفرة لمجلس العقد والمنزل الجديد وفوق رأس المسافر و.. بعض سوره وآياته كأوراد وأعمال وشعائر خاصة للتعزيم والطلسمات لمنع الجن.. ورفع الورم، وربط العزائم، وتعليقه في رقبة الوالدة والبقرة الحلوب والإنسان المختل عقليّاً!! قال أحدهم في أحد السجون السياسية ـ حيث كان هناك سبعون من الإسلاميين المستنيرين جداً مسجونين ـ طلبت مصحفاً لبحث نقطة ما.. فلم أجده، وأحصيت ما لديهم من كتب فوجدت عند هؤلاء السبعين مائة نسخة من أحد كتب الأدعية بقطع مختلفة وطبعات مختلفة!!

عن أي قرآن تتحدث يا أخي المفكر؟! أيها الأستاذ، أيها

(١) الخلّاق: النصيب الوافر من الخير.

الطالب، أيها المترجم والكاتب والفنان والمجاهد الملتزم في سبيل الحرية، والذي تتألم من انحطاط مجتمعك وجمود الفكر وضعف الثقافة في بيئتك؟! أي قرآن؟! هل هناك في الأصل أحد ـ سواء أنت المعارض أو هو المؤيد ـ يعرف القرآن بحيث يدلي برأيه بشأنه؟! إذا كان هناك ثمة عنصر متعصب من حقه أن يقبل القرآن ويؤمن به دون قراءة أو معرفة أو فهم، لكن أيها المفكر المنصف لا حق لك ـ دون أن تفتحه وتفكر فيه وتفهمه ـ في رفضه وعدم الإيمان، وعلى عكس ما تظن، منذ أن عجز القرآن عن الحديث مع أتباعه، وعبدوا جسده، فتركوا روحه وفكره وكلماته، سقط المسلمون في عبادة الخرافة والضعف الاجتماعي والجحود الفكري والتعصب شبه الذهني والانحطاط العلمي والاقتصادي والسياسي.

أيها المفكر الواعي، إذا كنت لا تستطيع أن تفتح القرآن وتقرأ نصه وتعلم ماذا يقول، إذا كنت لا تستطيع أن تعرف التاريخ وتدرك أية معجزات مدهشة فعلها هذا الكتاب في إحداث ثورة إنسانية. . ومن قلب الفلسفات اليونانية وجنوحات الخيال الهندية والحضارات العسكرية والارستقراطية البيزنطية والإيرانية، ومن الجهل والتبعية العربية، أي حركة وأي غليان، أشبه بالمعجزة، فكري وثقافي وسياسي وأخلاقي عالمي قام بها، وأية روح ثورية نفثها في جسد البشرية الممزق إرباً، وأية حضارة علمية وروحية ومادية رباها بين الجماهير المحرومة على الدوام من العلم ومن السعادة، من منطلق التقوى والعدل. . إذا كنت لا تستطيع أن تعرف كل هذا. . تستطيع

على الأقل أن تستمع إلى كلمات القادة الثوريين لشمال أفريقيا في عصرنا هذا.

لقد بدأت اليقظة وحركة التحرير المضادة للاستعمار في شمال أفريقيا تماماً يوم أن جاء محمد عبده ـ المنتمي إلى مدرسة سيد جمال الدين والذي كان شعاره عودة كل المسلمين إلى القرآن ـ إلى شمال أفريقيا، وجمع كل علماء الإسلام ودعاهم قائلاً: بدلاً من الاستغراق في الفلسفات القديمة والاقتصار على الفقه والأصول والكلام والحكمة وطرح قضايا ميتافيزيقية، ومسائل دقيقة وذهنية بشكل مبالغ فيه في الأحكام الفرعية.. إذهبوا إلى القرآن، واستمدوا العون من كل العلوم القديمة والجديدة، الاسلامية وغير الإسلامية من أجل الفهم الصحيح الخالص لهذه «الرسالة»، وجاهدوا حتى يتعرف الناس الموبوءون بوباء الاستعمار والمتدينون أسرى الخرافة والفرقة وضيق النظر والتعصب والجهل ـ يتعرفوا ـ على القرآن.. اطرحوا القرآن سواء في حلقاتكم العلمية الدينية.. وسواء على ألسنة العوام وفي مستوى أفكار العوام.

ومنذ ذلك الوقت، طرح القرآن مرة ثانية في مجتمع المسلمين، وفي الحلقات الدراسية عاد تدريس القرآن، وبين العلماء الدينيين عاد البحث في القرآن وتفسيره، وفي محافل المفكرين والمناضلين طرحت القضايا القرآنية، وحتى في كتاتيب القرآن عاد تعليم القرآن وتحفيظه.. واتسع في صورة برنامج حاسم حيوي وأصيل، وكانت نتيجة هذه المبادرة، أن الدين وشعائر الدين والعقائد الرائجة التي كانت حتى ذلك الوقت تخدر الأفكار وتجعل

الناس غافلين عن شؤم مصيرهم - أي الوقوع بين براثن الفرنسيين - وتجرهم إلى أوهام وعقد قديمة وخلافات فرعية ومصادمات طائفية وتعصب جاهل. . صارت بهداية القرآن عاملاً من عوامل اليقظة وإيجاد المسؤولية والوعي الذاتي والقوة والوحدة.

وقبل ذلك، كان المتدينون - تحت نير الاستعمار - يذهب كل منهم نحو الدين والشعائر الدينية حتى يتجاوز لهم الله والرسول والأئمة والصلحاء عن ذنوبهم الفردية ويغفروا لهم، وكانوا يجاهدون عن طريق العبادة في الحصول على ثواب الآخرة كأفراد.

وبينما كان الجنرال «آرجو» والجنرال «سالان[1]» قد أذلا كلاً من الجزائر وتونس ومراكش وموريتانيا تحت نير الاستعمار الفرنسي اللا إنساني، وأخذوا في نهب ثروتهم وعزتهم وثقافتهم، يذهب الجنرال «سوستيل[2]» إلى غابات تلمسان «لصيد العرب» حتى يعلّم ولده إطلاق الرصاص والصيد، ويكتب إلى زوجته في باريس «كلنا بخير، أنا بخير، وكلبي بخير، والعرب تبعي بخير» كان المؤمنون في نفس تلك الأيام السوداء في أوضاع الذلة المجللة

(١) واوول سالان (١٨٩٩ - ١٩٨٤) جنرال فرنسي. ترأس الحملة الفرنسية على الجزائر عام ١٩٥٦ بعد حوادث أيار ١٩٥٨، انقلب على الجنرال ديغول، أوقف عام ١٩٦٢ بعد أن حُكم عليه بالإعدام غيابياً ثم خفف الحكم إلى مؤبد. أعفي عنه عام ١٩٦٨. أعيد اعتباره عام ١٩٨٢.

(٢) جاك سوستيل (١٩١٢ - ١٩٩٠) سياسي فرنسي: حاكم الجزائر ١٩٥٥ - ١٩٥٦. ناصر وأيد عودة الجنرال ديغول خلال حوادث أيار ١٩٥٨. وزير (١٩٥٨ - ١٩٦٠).

بالعار، كلهم مشغولين بالذكر والدعاء والتوسل، وأحياناً بالنذور والإطعام وأمور الخير الفردية لكي يصلوا إلى حريتهم ونجاتهم من نار الجحيم، ويظفروا بالنجاة بعد الموت، لكن بمجرد أن عاد القرآن من رفوف التقديس إلى مسند التعليم والتفكير، علمهم أن طريق الخلاص في الآخرة هو الخلاص في الدنيا، وطريق جنة المسلمين يمر بحرية المسلمين ويقظتهم وعلمهم، وأن كل من يموت هنا ذليلاً يبعث هناك أيضاً ذليلاً ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[1] وعلموا أن السبيل إلى التقرب من الله في الإسلام هو «التعقل» لا «التعبد» وإن العابد غير الواعي والجاهل هو حمار في طاحونة يدور ويدور ولا يبرح مكانه!!

علموا أن كل من يستسلم للظالم فهو عون للظالم، وأن حياة المسلمين قائمة على «العقيدة والجهاد»[2]، وأن سنة الرسول وربائب الرسول ليست التلقين والتعبد والرياضات الفردية والعبادات التخديرية بل «الجهاد والشهادة» وأن الذي جاء بالقرآن ليس راهباً لكنه «نبي مسلح»[3] وهدف رسالته «الوعي والعدالة».

---

(١) سورة الإسراء: الآية ٧٢.

(٢) الجهاد باب من أبواب الجنة فتحه الله لخاصة أوليائه، فهو لباس التقوى ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة عنه ألبسه الله ثوب الذل وشمله البلاء وديث بالصغار والقماء» (نهج البلاغة ص١٢٢ للشيخ محمد عبده ط٨).

نهج البلاغة. المترجم: لعله يقصد النص: إن أفضل ما توسل به المتوسلون إلى الله سبحانه وتعالى الإيمان به وبرسوله، والجهاد في سبيله فإنه ذروة الإسلام.

(٣) بتعبير رودنسون (ماكسيم) الفرنسي.

علموا أن إله الإسلام يذكر الحديد كمظهر للقوة في صف واحد مع ميزان العدل وإلى جوار الكتاب والوحي[١] وعلموا أن من أمارات المجتمع المؤمن بالإسلام هو أن يكون أفراده ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[٢] وأن يتميز بالرفعة والعزة[٣]، والآن وقد ابتلوا بالاستعمار وأصبحوا أذلةً وأسرى للاستعمار الفرنسي، والحقد سائد بينهم، التشاؤم وشدة التعصب تفرق بينهم، لكنهم بالنسبة للأجنبي لينو الجانب متساهلون متوائمون متفاهمون متصالحون لا يبالون، إذن فالذي لديهم باسم الدين وما يعملون به باسم الإسلام لا هو بالدين ولا هو بالإسلام، بل إن صلاتهم ودعاءهم وحجهم وصومهم وهي أفكار مسلم بها وواضحة لا هي بالصلاة ولا بالدعاء ولا بالحج ولا بالصوم.. لأنها لو كانت كذلك.. لكان لها نتيجة!!

كل هذه المعلومات والمعارف علمها القرآن للناس وأيقظهم، وفهموا أن أعظم مسؤولية دينية ملقاة على كواهلهم هي أن عليهم قبل كل شيء أن يجتثوا عوامل الانحطاط الفكري في المجتمع من جذورها، وإنه بدلاً من المناقشات حول الجبر والاختيار والعلاقة بين ذات الله وصفاته والأبحاث حول حقوق «السيّد» على «العبد»، واكتشاف باب آخر من أبواب الطهارة

---

(١) ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ سورة الحديد، الآية: ٢٥.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٥٤.

(٣) ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ سورة المنافقون، الآية: ٨.

والنجاسة، أو اكتساب ثواب «الشهادة» عن طريق «الزيارة»، عليهم أن يحملوا السلاح ويقوموا بطرد الاستعمار الفرنسي. .

وهكذا فعلوا. . ورأينا أن «الجماهير الأسيرة دينياً» قد استيقظت وبدأت الجهاد بقوة الدين ودعوة القرآن، وعاد «المفكرون العلمانيون» الذين كانوا يرون الدين والإسلام وشكله القديم فتهربوا منه وآمنوا بمدارس فكرية وأيديولوجيات أخرى. . واضطروا إلى الانفصال عن قلب الناس المتدينين، وأصبحوا بالنسبة لأنفسهم «شريحة ساقطة من جسد المجتمع»، عادوا إلى الإسلام وإلى المسلمين معاً وآمنوا والتحقوا بالجماهير، ومن هنا نجت الجماهير من الجمود والتعصب ونجا، المفكرون من التغرّب. . بالعودة إلى الإسلام. . هذا حتى أن رجلاً مثل عمر أوزجان كان سكرتيراً عاماً سابقاً للحزب الشيوعي ومفكراً ماركسياً مشهوراً في أفريقيا. . عاد إلى الإسلام عن وعي، وكتب عمله العظيم «أفضل الجهاد» الذي استوحاه من الحديث النبوي الشريف: «أفضل الجهاد كلمة حق عند إمام جائر» واختار «الاتحاد القومي لطلاب الجزائر» اسماً جديداً له هو «الاتحاد الإسلامي لطلاب الجزائر».

وفي هذا الوقت، لم يقم الإسلام بمنح جماهير المتدينين الروح والإتجاه فحسب، بل وجد في عيون المفكرين الماديين والعلمانيين جاذبية قوية جالبة للإيمان، وكتب رجل مثل هنري الج رئيس تحرير جريدة «جمهورية الجزائر» (المتحدثة الرسمية باسم الحزب الشيوعي الجزائري) الذي كان من أصل فرنسي، وبالرغم

من أوامر الحزب انضم إلى صفوف المجاهدين المسلمين.. كتب في السجن: «في مثل هذا المكان من الحقارة أن أتحدث عن أنواع التعذيب التي ارتكبوها معي.. فهنا يقذفون بأحد المجاهدين من غرف أحد الطوابق العليا إلى فناء السجن، وأرى هؤلاء أنهم بالرغم من أنهم تعرضوا لتعذيب طويل ومرعب، كانوا يغمغمون بأفواه محطمة دامية بكلمات غير مفهومة من دعاء مشهور لهم[١]، ولست أفهم معنى ما يقولون.. لكن ما أعلمه الآن أنه من بين كل المدارس الفكرية والأيديولوجيات الموجودة في العالم فإن الشيء الوحيد الذي أؤمن به هو هذه الكلمات».

كل هذه الانتصارات، في نفس هذه السنوات، وفي مواجهة نفس هذا الغرب قد تمت لأن المسلمين تعلموا أن القرآن كتاب قراءة، لا كتاب تبرّك، رسالة ينبغي أن تُسمع، وليس شيئاً مقدساً.. أو طوطم ينبغي أن يعبد، هو كلام وفي ثنايا هذا الكلام فكر، وليس في داخله سر مقدس (مانا) قوة غامضة تحل في الأشياء والأشخاص وتترك أثراً غيبياً نتيجة للمس والمسح باليد.. ومن ثم فإن القرآن إن أصبح في مجتمع المسلمين كتاباً يقرأ ويفهم ويطرح على الساحة.. إذا كان يقول للمؤمنين به: إنه يتحدث إليهم.. وأن خطابه لهم، وأنه ينبغي أن ينصتوا إلى ما يقول[٢].. فهو في هذه الحالة واهب للنجاة بناء محدث لليقظة.. لم يقم فحسب بإبداء هذه القوة في الماضي، بل وأبداها اليوم أيضاً،

---

(١) من الواضح أنهم كانوا ينطقون بالشهادتين، لكنه لم تكن مفهومة عنده؛ لأنه فرنسي.
(٢) ﴿وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ الأعراف، الآية: ٢٠٤.

وليس فحسب في مواجهة الأمبريالية الإيرانية والبيزنطية القديمة. . بل وأيضاً في مواجهة الاستعمار الجديد.

ومن هنا قال الجنرال سوستيل الذئب المتوحش للاستعمار الفرنسي في أفريقيا: «أن القرآن ليس كتاباً دينياً. . إنه كتاب علماني. . إنه بدلاً من أن يدعو إلى الزهد والعبادة والسلام والعفو والتفكير في الله والموت والروح والأسرار الميتافيزيقية وفلسفة الحياة والمصير النهائي للإنسان. . يدعو العرب إلى الحرب والنصر والانتقام والتمرد والاستيلاء على العالم وأخذ الغنائم. . ولا يوجد كتاب يستطيع أن يحرض الجماهير الفقيرة وعامل مؤثر فيه مثل القرآن، بكلماته الساحرة وموسيقاه حماسية الجرس، ولا يوجد كتاب مثله قادر على التأثير على الحقد والخصومات، ولا يوجد كتاب أقدر منه على إثارة النخوة والرغبة في الانتقام والهياج السياسي»!!

وقد سمعتم أن «جلادستون» رئيس الوزراء اليهودي الذي منح الاستعمار الإنجليزي الروح ـ قد ألقى بالقرآن على المنصة بغضب في مجلس العموم الإنجليزي وقال: ما دام هذا الكتاب موجوداً بين المسلمين فمن المحال أن يسود الهدوء والطاعة للاستعمار الإنجليزي في الأراضي الإسلامية.

هذه الشتائم على ألسنة الأعداء الواعين العارفين الذين جربوا قبل كل إنسان أثر هذا الكتاب على الفكر والاحساس والمجتمع الإنساني ـ في تلك السنوات التي لم يكن المسلمون قد عرفوا هذا

بعد ـ يعد رأيهم بشأن أرضية الدور الاجتماعي والفكري للقرآن في يقظة المجتمعات وحركتها وعزتها ونجاتها، هو أكثر واقعية وأكثر قابلية للتسليم والتصديق من نظريات المفسرين والعلماء. . هذا لأنهم أعداء. . بعيدون عن التعصب (للقرآن)، كما أنهم رجال مجتمع وسياسة وعلى صلة بالعمل والواقع. . وهم أيضاً بعيدون عن المفاهيم الانتزاعية والخيالية.

وقد صدقوا، وإن كانوا يتحدثون بلهجة المستعمرين للشعوب الإسلامية، ومن جهة أعداء الإسلام الذين يتضايقون من يقظة المسلمين وبعثهم وهزيمتهم للأعداء، وعدم صبرهم في مواجهة الظلم والاعتداء والسلب في النظام الاستعماري، ويفضلون في أفريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية، الأمة الأصيلة المطيعة عاشقة الأمن والتي لا تحس بأي هم، وشديدة التحمل والمحافظة والمؤمنة بالسلام الشامل، والقانعة والمؤمنة بفلسفة «الخير فيما وقع» أو المتدينة بدين عبادة الآخرة، والنفور من الدنيا، والزاهدة وصوفية الطبع، هاجرة الحياة الدنيا بشرها وحركتها، إنهم يحسون أكثر من أي إنسان آخر كيف أن القرآن إذا قرىء لا كورد غير مفهوم من أجل ثواب الآخرة وموهوباً لأرواح الآباء والأمهات بل ككتاب، يخلق اليقظة والحركة والعزة ويبدل قوة الإيمان إلى قوة وعصيان ضد الظلم والذلة والجهل.

أنظروا كيف يصور القرآن جماعة مسلمة (وهذه الصورة بكل أبعادها وتفصيلاتها على عكس هذه الصورة الموجودة في المجتمع والأمة الإسلامية حالياً):

﴿وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ[١] ﴿٣٨﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ ﴿٣٩﴾ وَجَزَٰٓؤُا۟ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا ۖ فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ ٱنتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ﴾[٢].

ويتحدث «ول ديورانت» مؤرخ الحضارة المعروف عن الأسلوب الأخلاقي والاتجاه الخاص لدعوة القرآن ويبين مم كان يتألم الجنرال «سوستيل» وأي دين كان يريد له أن يتواجد في المجتمعات الأفريقية. . يقول ول ديورانت: «هذه الآية من القرآن ـ فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» إذا قورنت بعبارة الإنجيل «من صفعك على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر. تبين أن القرآن يُعلّم أخلاق الرجولة بينما يُعلّم الإنجيل أخلاق الأنوثة».

نعم أيها المفكر الطالب للحق الذي تتألم من جمود مجتمعك وانحطاطه. . وتعتبر أن القرآن هو ما تراه في أيدي هؤلاء المؤمنين!! المفكر هو الذي لا ينظر إلى الأمور السطحية. . فكيف عرفت القرآن وأين عرفته؟! إن القرآن الذي تعرفه وتراه، هو «ذلك» الشيء المقدس الذي صار اليوم في يد الجهل والخداع أداة للاستخارة

---

(١) النفق هو الحفرة والفجوة والإنفاق هو العمل الذي يملأ هذه الحفرة وفي الحقيقة فإن الهدف من الإنفاق إلغاء الفوارق الطبقية والتناقضات الإقتصادية في المجتمع وهو يخالف تماماً المعنى السطحي أو العامي الذي يفهمونه اليوم وهو عملياً يسبب توسيعاً أكثر للفجوات الاقتصادية والطبقية.

(٢) سورة الشورى، الآية: ٣٨ ـ ٤١.

والتيمن والتبرّك كما كان قد رُفِع بالأمس أيضاً على حراب الزور والظلم كأداة للتزوير، كما كان قبل كل ذلك أيضاً بالنسبة للذي نفى أبي ذر منطلقاً من قدسية دينية وتقرّب إلى المؤمنين!!

ولا ينبغي أن يُعرف القرآن بشكل عامي ـ أي كما يفهمه العوام تماماً ـ ينبغي أن يفتح الكتاب ويُقرأ ويكون مجالاً للفكر، ويكون تأثيره في التاريخ مجالاً للبحث، كما يبحث دوره في مواجهة الغزو الفكري والثقافي والسياسي للاستعمار في آسيا وأفريقيا في القرن الأخير، وحينذاك تتم معرفته ورؤيته ككتاب فكر وحرية وعدالة وقوة.

أُريد أن أقول.. أيتها الأخت.. أيها الأخ..

إن كربلاء مدرسة ثورية عظيمة، فإذا كان الاستعمار الخارجي والاستحمار الداخلي، والأمراض السياسية والفكرية قد عملت لقرون، وأحدثت آلاف الأفعال والانفعالات الكيميائية القديمة والحديثة حتى حولت عنصر «الدم» إلى عنصر «الأفيون» بحيث تخدر به لا أن تحرك، ينبغي ألا يغفل المفكر الواعي عن هذا كله ويجعل معيار الحكم ما يراه الآن بعينه كما يراه عامي مخدوع غير واع.

ليست كربلاء حادثة، إنها مدرسة، تستطيع أن تتعلم منها روح الإسلام وحقيقة التشيع معاً، وتعرف أيضاً على أتم معنى للمسلم ومسؤوليته في مواجهة مصير مجتمعه. آلاف الأيدي الظاهرة والخفية قد عملت على مر الزمان حتى حولت إنساناً منح

الروح للحرية، والكرامة لإنسانية الإنسان بموته العظيم العجيب. . إلى صورة شكلية كالحلاج أو المسيح[١]، قد اختار شهادته بحب قبل الخليقة بسبب عشق ميتافيزيقي غير معلوم وبسبب تعهد خاص وميثاق وقعه مع الله. . وذلك لكي يقولوا: إن قضية النضال ضد الزور والظلم والثورة على الغضب والجريمة لم تكن موجودة، بل كان الموضوع كله حساباً بينه وبين الله في عالم الذر، ليس خروجاً على بيعة الظالم في سبيل حرية المظلوم وفضحاً لسحنة الشرك القبيحة تحت برقع التوحيد الجميل، وإبداء روح الإسلام وحقيقته واتجاهه الأساسي بحيث لو كان الحسين قد سكت لمسخ كل شيء، ولمحيت آثار الخطوات الواقعية للإسلام على مر التاريخ حتى في الأفكار. . أجل لو أن مفكراً قد حدث عنده نفس الإنطباع لمدرسة عاشوراء كما صنعوها كانطباع عامي غير واع، لصار ألعوبة في نفس هذه الأيدي، ولصار فكره من صنع أيدي أولئك الذين أصابوا أفكارنا وإيماننا بالذبول. . وذلك حتى لا يبقي له أثر وتصبح عوامل الحياة والحركة هي مواد الموت والجمود. وهذا المعيار ـ أقصد المعيار الذي وضع للتفرقة بين المفكر المستنير والرجعي ـ معيار سيىء وفحواه أن المؤمن بالعقائد الموجودة بشكلها الخرافي الموجود رجعي. . ومن لا يصدقها ويعمقها بشكل مطلق هو المفكر المستنير، في حين أنه ينبغي أن نضع هذا المعيار، وهو أنه من يفهم العقائد الموجودة بين الجماهير على

---

(١) كما تصوره المسيحية.

نفس صورتها الممسوخة هذه والخرافية ويؤمن بها هكذا، هو الرجعي العامي غير الواعي، وأن من يفهم جذورها الأصيلة وما أضيف إليها وما حذف منها على مر التاريخ، ويحلل عواملها وعللها المختلفة التقليدية والسياسية والثقافية والاقتصادية والطبقية تحليلاً علمياً وتاريخياً واجتماعياً، ويكتشف الأيدي التي كانت تعمل في هذه التحولات والانحرافات والأيدي التي لا تزال تعمل، ويقيّم الصورة الذهنية العقلية والدور الواقعي الاجتماعي لتلك العقائد، ويوازن بينها وبين حقيقتها الصادقة الأولى التي اكتشفها بالبحث والتقصي والتدقيق الواعي العلمي الصبور.. هذا هو المفكر المستنير. ثم إنه إذا جاهد هذا المفكر في نشر فهمه ومعرفته الصحيحة في مجتمعه الأسير المخدوع وحطم الشكل المصطنع الممسوخ لتلك العقائد في أذهان الناس في عصره وجعل روحها الحقيقة واضحة جلية.. وكافح وناضل في هذا الطريق الذي هدفه توعية الناس وإحياء الحقيقة بفدائية وإيمان وإخلاص كما ينبغي لكي يصلوا إلى نتيجة، يمكن أن يقال عنه حينذاك: إنه مفكر مسؤول وإلا كان على نفس هذا النمط الموجود في مجتمعنا.. مفكراً لا تأثير له.. ولا دور له.. وشأنه تماماً شأن الرجعي غير الواعي، لأن كليهما صاحب تصور ذهني متشابه عن الدين والله والإسلام والقرآن والحج والدعاء والتوسل والتوكل والمعاد والآخرة والشفاعة والإمامة وعليّ والحسين وفاطمة والانتظار وآخر الزمان وغيره!!

فالمؤمن الأسير مثلاً يفهم الشفاعة هو الآخر على النحو

التالي: إن فرداً لا يستحق الخلاص والنجاة وليس جديراً بها طبقاً للحساب وكتاب الله والقوانين والمقررات التي وضعها الإسلام للنجاة والثواب في الدنيا أو الآخرة، بل إنه مدان ومذنب، لكنه يستطيع عن طريق التوسل باحدى الشخصيات القوية المقربة من الحضرة الإلهية، وعن طريق البكاء والدعاء والنذر والإطعام والزيارة وإبداء المحبة والاخلاص لأحد الأعزاء لدى الله أن يجذب نظره إليه لكي يطلب من الله ألا ينفذ القانون العام الشامل لحال هذا الفرد.. فلا ينفذ الحكم بشأنه، بل ويعطيه أجز عمل لم يقم به..

وعلى سبيل المثال: كل من يضحي بكل شيء في سبيل الحق، ومن أجل تنفيذ شرع الله وخلاص الناس واستقرار العدالة، ويجاهد ويهب روحه.، قد حدد له ثواب شهيد. ومن بين كل الشهداء حدد لشهداء بدر حق أكثر؛ لأن الذي كان مطروحاً هو وجود الإسلام نفسه ومصيره. ومن هنا فمن أجل اكتساب هذه الجائزة ينبغي بذل الروح، ومن أجل الحصول على الجائزة الخاصة بشهداء بدر ينبغي أن يكون المرء منهم. لكن هناك ملحوظة تشير إلى أنه من الممكن بحيلة خاصة الوصول إلى هذا الثواب، والوقوف في صف واحد مع أحد هؤلاء الشهداء دون مشقة الحرب وخطر الشهادة، والوصول إلى المقام الفكري والاستعداد الروحي لإنسان مجاهد وفدائي!!

وعلى سبيل المثال أيضاً: في يوم القيامة عندما يُستعرض صفوف شهداء كل غزوة، نرى في صف الشهداء إلى جوار

عليّ والحسين وحمزة، قد وقف الحر والعباس وجعفر الطيار وأنس بن النضير وخباب وياسر الذين نعرفهم ونعلم ماذا فعلوا وكم كان لديهم من قيم سامية.. ثم نصل إلى عدد من السحنات «معلومة الحال» قد وضعت في نفس مستوى هذه الشخصيات العظيمة الفخار!!! ونسأل أحدهم: ماذا تفعل هنا يا سيادة الحاج؟!

شهيد أي غزوة أنت؟! فيرد: أنا لم أجاهد.. بل مت من البطنة.. لكني اغتسلت ليلة الجمعة، ثم تلوت ورد كذا سبعين مرة متتالية حتى وصلت إلى هذا المقام.. وعليك ألا تتعجب وتتساءل لماذا حشرت مع الشهداء.. ولا تظن أنني لست جديراً بهذا المقام، لقد اكتسبت في تلك الليلة قيمة سبعين شهيداً من نوع شهداء بدر، أعظم شهداء العالم.. وكوني على استعداد للوقوف إلى جوار هؤلاء الشهداء، وأن أحسب نفسي واحداً منهم فهو من قبيل التواضع، والحط من الشأن الموجود عندي واحتراماً لحضرة سيد الشهداء الحسين أنزلت درجتي إلى درجة واحدة من سبعين درجة، لأن كل ثورة الإمام الحسين تساوي اثنين وسبعين شهيداً و«قعودي» أنا وحدي يساوي سبعين شهيداً (هذا ما يسمونه فهلوة!!).

هذا هو معنى الشفاعة في ذهن هذا المؤمن «المبدول»، ومن ثم فإذا كان المفكر بدوره، ولأنه يعتبر معنى هذا النوع من العقائد على نفس هذا الشكل، عامل انحطاط وسلب للمسؤولية وطرح للحساب والكتاب جانباً، وأنها عقائد في الأصل لا

إنسانية، وتعد إهانة للنظام الكوني ونقضاً للمنطق الإلهي، فهو يدينه وينفر منه على أساس أنه عقيدة الإسلام. فمثلُ هذا المفكر كمثل ذلك المؤمن، صار ضحية خداع الاستعمار الثقيل، وآمن بأن الإسلام هو هذا في حد ذاته ويريد هذا في حد ذاته. . وأن الحقيقة الصادقة والمعنى الأصيل للشفاعة هو هذا دون سواه، أي نفس ما صنعه حراس الجهل وعمال الانحطاط الفكري والتخريب الذهني للناس!! ومن هنا فهذا المفكر هو الآخر «مفكر مبدول»!!

وماذا يحدث إذن؟! ذلك الذي نراه!! مائة سنة وأكثر وقد صار العوام في أسر الخرافة والعقائد التي مسخت، وهم يؤمنون بها ويعملون بها، أو يرسخون أكثر في جهلهم وجمودهم، ويصبحون أكثر غرقاً. . والمفكرون يتحدثون مع أنفسهم بعيداً عن الناس وفي أبراجهم وقلاعهم المغلقة: قاعات محاضرات الجامعة والمجلات ذات المستوى الرفيع والشعر الحر والأعمال الأدبية والفنية الرمزية والندوات الخاصة والكتب الفنية. . يتحدثون مع أنفسهم. . ويضحكون من جهل العوام، ويستمتعون بأنواع نقدهم العميق وتدقيقاتهم الدقيقة وفكاهاتهم اللذيذة وسخرياتهم اللاذعة العميقة الفلسفية الطريفة. . وقلوبهم راضية وهم راضون عن أنفسهم، إنهم لا دينيين وعلمانيون وعلمويون وعصريون وذوو رؤية من آخر طراز، وأنهم يشبهون تماماً مفكري عصر النهضة، أو القرن التاسع عشر في أوروبا، الذين وقعوا في خناق المسيحية، ورفضوا سلطة البابا والخرافات الدينية، وأسسوا الحضارة الحديثة، ويعتبرون

أنفسهم روادآ مثل غليليه[١] وكوبرنيك[٢] وجوردان[٣] وجان جاك روسو وڤولتير[٤] وغيرهم من الموسوعيين[٥].

لكن كل ما يتحدثون به إلى أنفسهم هو مجرد أوهام، و«تقييم متسرع» و«قياس مع الفارق»!! ومفكرونا هم فقط الذين يحسون أنهم لا يفتأون يفكرون!! وإلا فإنهم لم يوضحوا أي شيء للناس، والسبب هو أن الأمر ليس واضحاً لهم هم أنفسهم، إنهم تماماً كالعوام في تلقيهم للقضايا العقائدية والتقليدية والدينية لمجتمعهم وتاريخهم وثقافتهم، ويعرفونها على نفس النمط، وكلاهما ـ أي المفكر والعامي ـ يفهم شيئاً على أنه الدين والمذهب والتاريخ والثقافة. الفرق أن هؤلاء أي العوام يؤمنون بها، في حين أن الفرق بين المفكر الواعي التقدمي الذي يفكر بشكل علمي، وبين العامي مظلم الفكر الذي لا يفكر أساساً، ليس في أن هذا يؤمن وذاك لا يؤمن، بل كامن في أن ذاك يعرف الحقيقة وهذا يعرف

(١) غليليه (١٥٦٤) ـ ١٦٤٢) عالم فلك مشهور. اكتشف حركة دوران الأرض حول الشمس. من مخترعاته ميزان الحرارة والمنظار الفلكي.

(٢) نقولا كوبرنيك (١٤٧٣ ـ ١٥٤٣) فلكي بولوني. برهن عن دوران الكرة الأرضية حول ذاتها وحول الشمس.

(٣) باسكوال جوردان (١٩٠٢ ـ ١٩٨٠) فيزيائي ألماني. كان له أبحاث في عدة علوم أهمها الرياضيات. شملت أبحاثه أيضاً علوم: التنجيم والكون والعلوم البيولوجية.

(٤) فرنسوا ماري ڤولتير (١٦٩٤ ـ ١٧٧٨) مؤلف فرنسي. من نوابغ زمانه. تزعم حركة الفلسفة المادية. قاوم رجال السلطة الدينية والمدنية ونقدهم بقلمه اللاذع. (المصحح).

(٥) انظر لمعلوات أكثر حول هذا الموضوع: الثورة الإيرانية، الجذور والأيديولوجية للمترجم. رسالة: المفكر ومسؤوليته في المجتمع.

الباطل!! وأن هذا المفكر عرف علياً الحقيقي.. وفتح القرآن وفهمه.. وأن هذا العامي يقدسهما فحسب، ويتعصب لهما ولا يفهم، أو يفهم بشكل سيىء.

وعلى هذا الشكل ستمر ألف سنة أخرى والفكر ـ مثل زائدة دودية ـ في جانب المجتمع، و«بين جدرانه الأربعة» يتحدث بالسوء عن الدين وكل العقائد الدينية وكل معتقدات الناس ويسخر، والناس أيضاً يأكلون من نفس تلك الأطعمة المسمومة والتي لا فائدة منها والتي «طبخت» تحت أسماء مقدسة وذات جلال شديد وجميلة كي يطعموها للجميع، ولا يفهمون بل ولا يتحدثون.. ويواصلون الأكل والاجترار.. إلى ألف سنة أخرى!!

الفائدة الوحيدة التي تكسبها جماهير العوام من الأذهان المفكرة والمتعلمة العصرية هو التصور الموجود لديهم عن الفكر، وهو «أن هؤلاء المفكرين عدد من اللامبالين الفاسدين الفارغين من الحقيقة تعلموا بضع كلمات عن موضوعات جديدة.. وذهب كل ما لديهم أدراج الرياح، والأوروبيون هم الذين قاموا بملء عقول شبابنا المتعلم الذي ذهب إلى أوروبا بعدة كليشيهات ـ تهمهم هم لكي يصبحوا خدمهم الذين يعرفون لغتهم وربائبهم اللائقين بهم ـ ويفرغونهم من الإيمان والإسلام والله والأخلاق وتقديس الحقيقة والتقوى والفضيلة.. وهم يأخذونهم منا لأنفسهم، وينشئونهم على العداء لكل مقدساتنا.

وواضح من هذا الدور الذي يلعبه المفكر ـ كممارسة للفكر ـ

في مجتمعه ـ هو دور سلبي على الإطلاق. . وبهذا الانطباع والتصور الموجود لدى الجماهير المتدينة عن فكر مجتمعها، فإن عدو الإسلام والناس ينبغي أن يهدأ باله تماماً، فلا الجماهير سوف تعود عن خرافاتها إلى حقيقة الدين، كما أن المفكر لن يستطيع في أي وقت من الأوقات أن يلعب دوراً في هداية الناس، وبيان الطريق الصحيح، وتعريف الجماهير بحقائق الدين، والوجه الصحيح للإسلام وعناصر التقدمية البناءة التي توقظ الجماهير. . بدلاً من الاعتراض، والرفض المطلق لحقائق الدين، وعدم معرفة الحقيقة من الخرافة، وعدم تحديد عوامل التحريف والمتلاعبين بالعقائد والأفكار الدينية والوطنية والثقافية للمجتمع!!

وعندنا على سبيل المثال: نفس الشفاعة والتوسل التي طرحت بهذه الصورة، وصارت وسيلة لهروب الناس من المسؤولية، وضوءاً أخضر على رأس كل تقاطع في طريق الحياة، وعامل انحراف الجماهير عن القيام بالحمل الثقيل لواجبات عديدة يضعها القرآن والوجدان والشعور على كاهل الإنسان، وهي أيضاً «دكان» لعدد من الذين يتعيشون من هذا السبيل. . وهم الوسطاء. . أي إنسان يستطيع أن يخلص المجتمع من الآثار الفكرية والعقلية والأخلاقية والاجتماعية السيئة لهذا النوع من التوسل والشفاعة؟! أي مفكر؟! المفكر الذي يظن نفسه هكذا بالمعنى الذي هو عليه الآن!! ولأنه مفكر لا يقبلها بل ويهاجمها. . ولا توضيح. . ولا طريق بديل لديه ولا توصية. . بل جعل نفسه مرفوضاً من الناس وجعل الناس أكثر استحكاماً في جهلهم؟!! أبداً!! هذا في حين أن

المفكر الحقيقي المسؤول هو الذي يكتشف المفهوم الحقيقي لهذه العقيدة كما هي موجودة في المذهب الذي يؤمن به الناس، أي التشيع، وكما أراد الإسلام منها، ويجاهد في أن يضع بكل قوة قلمه ولسانه ومنطقه وعلمه وتضحيته وآياته واخلاصه هذا المفهوم التقدمي الحقيقي في أذهان الناس وقلوبهم محل تلك الخرافة وذلك الأسر.

أُريد أن أقول:

أيتها الأخت، أيها الأخ:

إن فلسفة «المعاد» في الإسلام الحقيقي ليست فلسفة رفض «المعاش»، وليست وسيلة في أيدي طبقة رجال الدين والأقوياء وكانزي الذهب للتغرير بالناس وصرفهم عن الحياة المادية وعن الاهتمام بالدنيا والمجتمع، وليست «جنة الآخرة» في الإسلام الحقيقي أملاً واهياً من أجل تعويض «جهنم الدنيا»، وأن دعوة الإسلام للتفكير في الحياة بعد الموت أساساً، وفي سعادة الإنسان ومتعته ورفاهيته في العالم الآخر، لا تعني الا نفكر في هذا العالم وألا نهتم بالحياة قبل الموت، أو أن نكتسب عمارة الآخرة والتمتع والنجاة من القيامة بخراب الدنيا والحرمان والذلة في الحياة!!

الأمر على العكس تماماً، وعلى العكس من الرؤية العامية الدينية الرائجة، لا يعتبر الإسلام المعاش والمعاد، والمادية والروحانية، والدنيا والآخرة مفاهيم منفصلة كلاً عن الآخر ومتعارضة، بل يقدم الدنيا في الأساس على أنها «المكان الوحيد

للعمل والانتاج والنضج والبناء واكتساب القيم المادية والروحية والسعادة الأخروية»، فالحياة الدنيا وسيلة لاكتساب القيم الإلهية والحصول على استحقاق الجنة. . والدنيا في الأساس هي الأصل، والحياة قبل الموت هي الأصل، والآخرة فرع للدنيا بمعنى أن الحياة الأخروية، والسعادة والنجاة الإلهية، والمصير النهائي للإنسان في المعاد، نتيجة ومعلول لسيرة الإنسان في حياته الدنيا هذه. . والحديث «الدنيا مزرعة الآخرة» يعني العلاقة بين الدنيا والآخرة في «الرؤية الكونية الإسلامية»، فالآخرة نتيجة طبيعية ومنطقية للدنيا، وتماماً على العكس من الرؤية الساذجة للمتدينين الموجودين والمتاهات التي يقدمها العلمانيون بالفعل. . يعد العمل والانتاج وعمران الحياة الدنيا الوسيلة الوحيدة للحصول على محصول الآخرة. . لا كما تفكر تلك الجماعتان المتشاحنتان: بتخريب مزرعة الدنيا!

يُعبّر عن هذا حضرة الرسول ﷺ في عبارة قصيرة وقاطعة وواضحة وصريحة بحيث يمكن أن تطرح كأكثر الشعارات البنّاءة تقدمية وعلمية وعداء للخرافة:

من لا معاش له لا معاد له

ومن هنا فإن أولئك الذين يظنون أن تحمل الفقر والذلة والعبودية والمرض والتأخر والضعف والشقاء المفروض عليهم في حياتهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية من قبل الاستبداد والاستقلال والاستعمار يظنون أن هذا عامل تعويض وجزاء إلهي

واكتساب للثروة والعزة في الآخرة والنجاة والعافية ودخول الجنة، قد تجرعوا خديعة أصحاب الدنيا الذين «استحمروهم» باسم الدين ودفعوهم إلى تحمل مصيرهم التعيس والصبر عليه، ويجيب القرآن الكريم عليهم وعلى المفكرين العلمانيين بالطبع. . وكلاهما اعتبرا الخداع الاستعماري ديناً. . إذ يقول:

﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾[١]

أي أن كل من كان في هذه الحياة الدنيا وفي عصره ومجتمعه أعمى فاقد القوى، فهو في الآخرة أيضاً أعمى ومعدوم الوعي وأكثر ضلالاً.

أريد أن أقول:

أيها الأخ.. أيتها الأخت..

ليس الدعاء عامل عجز وذلة وسلب للمبادىء والقيم الأساسية، وليس الدعاء وسيلة للحصول على ما هو محال وغير معقول ولا منطق له، ولا يحل الدعاء أبداً محل «الواجب» ويقوم بإسقاط مسؤوليات الفرد أو المجتمع. ليس الدعاء ملجأ للفرار من الالتزامات الملقاة على كاهل الفرد تجاه حياته، والشعب الذي ينتمي إليه، ومجتمعه ومصيره، ليس مادة تغسل وصمة القبح والانحطاط والعار والخيانة، ليس حيلة تكافىء المدان ومن لا يستحق وعن طريق غير منطقي وغير قانوني.

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٧٢.

لقد قدمت محاضرة تحت عنوان «الدعاء» في يوم الإحتفال بالإمام السجاد عليه السلام[(١)] وبينت آراء البروفسور «اليكس كاريل[(٢)]» التي كنت قد أطلعت عليها منذ وقت طويل إلى جوار بعض الدراسات التي قمت بها بشكل عام في مجال الدعاء الإسلامي، خاصة الدراسات التي قمت بها عن متن «الصحيفة السجادية» الجميل العميق الذي يثير الدهشة.

عندما ذهبت إلى أوروبا للدراسة، كان أول ما ترجمته في باريس إلى اللغة الفارسية كتاب «الدعاء» من تأليف «اليكس كاريل» وكان قد نشر منذ سنة ١٣٣٨(هـ. ش) حتى الآن عدة مرات، كما نشر أخيراً مع محاضرة للأستاذ بازرگان عن الدعاء عن «شركة انتشار» وهو في مجموعه كتاب جامع ومهم، فهو يحتوي على أبحاث عالم كبير بالإنسان حصل عليها عن طريق أبحاث كلينيكية وتشريحية ـ عن الدعاء، مع تفسيرات وأبحاث مفكر إسلامي كبير جامع بين النظرية العلمية والعلم بنصوص الدعاء الإسلامي وينظر إلى الدعاء من زاوية إسلامية خاصة، وكل منهما يكمل الآخر.

وفي بحثه يعتبر «كاريل» أن الدعاء حاجة تفور من أعماق

---

(١) لأنه صاحب «الصحيفة السجادية» وهو مجموعة من الأدعية تجمع بين العمق؟ وتفيض رقة وعذوبة. المترجم.

(٢) اليكس كاريل (١٨٧٣ ـ ١٩٤٤): جرّاح وفيزيولوجي فرنسي. اكتشف زراعة الأنسجة. جائزة نوبل ١٩١٢. له كتاب «الإنسان ذاك المجهول». (المصحح).

الفطرة الإنسانية كالتنفس والشرب، ويمنح الروح والفكر والعقل الصفاء واللطف والكمال والاستنارة الخاصة، كما يمنحها راحة وخلوصاً مدهشين. يقول: ليس الدعاء علامة على عجز الإنسان بحيث يكون مجلبة للعار كما يقول «نيتشه[1]»، لكنه عاملٌ يمنح الإنسان دائماً الصلة مع الأساس المعنوي للوجود، ويسوق الروح إلى الكمال والتعالي والصعود من مستوى التراب، والارتفاع إلى الأوج من أزمة الحياة الخارجية والداخلية. . بل يصل إلى أن يقول: «إنه لا توجد أمة في التاريخ لم يكتب عليها الزوال النهائي إلا أن تكون سنة الدعاء قد زالت منها تماماً». ومثل هذا الكلام من رجل دين أمر عادي، لكنه على لسان رجل يتحدث كعالم في علم الإنسان والطبيعة، ونال جائزة نوبل مرتين في هذا المجال أمر جدير بالتأمل.

وفي نفس تلك الأيام التي كنت فيها مشغولاً في باريس بترجمة كتاب الدعاء، وكنت أزاول البحث من أجل معرفة أكثر بالكاتب وأفكاره، أحسست أن كتابه وإن كان شديد العمق وذا قيمة إلا أنه بحث موضوع الدعاء في معناه العام ـ وفي الأغلب بما يتوافق مع الروح المسيحية. . وعلى أساس أن الدعاء «كلام محبة للإنسان مع الله» أو «طلب ما يحتاجه الداعي منه» أي أن

---

(١) فردريك نيتشه (١٨٤٤ ـ ١٩٠٠) فيلسوف ألماني. أخذ بمذهب التطور .وقال إن الحياة ليست غير تنازع البقاء وبقاء الأصلح، وإن «الإنسان الأعلى» هدف يجب الوصول إليه. كان من مؤسسي العرقية الجرمانية. يتلخص مذهبه بما يدعى «إرادة القوة».

الدعاء وليد «الفقر والعشق».

لكني عند البحث والمقارنة انتهيت إلى أنه بالرغم من أن الدعاء في الإسلام يحتوي على الجانبين معاً إلا أنه: أولاً: إنَّ ما يعرض على الله سبحانه وما يطلب منه خاصة جدير بالدراسة، وثانياً: هناك عناصر أخرى ـ غير العشق والحاجة (النجوى والضراعة) ـ موجودة أيضاً في أدعيتنا خاصة في أدعية الشيعة بما أنهم كانوا أقلية مُدانة في تاريخ الإسلام، ولم يكن لديهم حق حرية التعبير أو الكتابة، وكانوا يعانون من الاختناق الفكري والمطاردة والتعذيب، ويضطرون إلى العيش في ظروف «التقية»، فإنهم في نفس الوقت اتخذوا من الدعاء وسيلة لبيان رؤيتهم الكونية وطرح عقائدهم المذهبية، بل وإعلان أهدافهم ومطالبهم الاجتماعية والسياسية. . وكتاب «الصحيفة السجادية» للإمام زين العابدين علي بن الحسين عليه السلام مظهر ومثل لهذه الدراسة في الدعاء.

وهذا الكتاب، مثله مثل أغلب الأدعية الموثقة والصادقة الشيعية. . على نمط لا يعبر عن محتواه كلمة الدعاء بمعناها الرائج تعبيراً كاملاً، إذ يوجد أحياناً عدة صفحات في البداية تحتوي على خطاب موجه إلى الله سبحانه وتعالى شامل لصفات الله والإنسان وطبيعة العلاقة بين الإنسان والله، والله في العالم، والإنسان في الطبيعة وطبيعة الإنسان ومصيره والمسؤوليات الإنسانية والتفكير بالواجبات الملقاة على عاتقه، والاعتراف بأنواع الضعف والعجز التي كانت ولا تزال فيه، وبيان مطالب الإنسان ومثله العليا، بحيث

تشكل في مجموعها نصاً فلسفياً وعقائدياً وعلمياً وأخلاقياً في غاية الدقة والروعة.

وهناك غير الوجهة العقائدية والفلسفية والفكرية للدعاء جوانب أخرى، فهو شامل لعرض آلام الإنسان ومتاعبه وبيان أحوال المجتمع والتناقضات الموجودة فيه، والمظالم وأنواع التفرقة والظروف غير الإنسانية المسلطة عليه، أو على طائفته ومجتمعه، والحديث عن العدو وأعماله ومؤامراته، وتحليل وضع هذه الجبهة في مواجهة الجبهة المسلطة على الحقيقة والمسيطرة على الناس.

ففي المرحلة الأخيرة يكون «الطلب»، وهذا الطلب أيضاً يختلف عن المطالب ضيقة النظر واللامنطقية واللامعقولة، والأنانية عابدة الذات، التي يقوم بها قراء الأوراق المحترفون الذين يرتكبون الأفاعيل ويتلون الأدعية دون أن يعرفوا معناها.. يحتوي الطلب هنا على مطالب إنسانية عظيمة، وبيان لرغبات سامية أخلاقية واجتماعية، بحيث يساوي بعضها أحياناً الشعارات الفكرية والسياسية لجماعة عقائدية ملتزمة ومتألمة ومشتاقة للمثل العليا والمثاليات التقدمية:

«اللهم لا تجعلني أداة في أيدي الظلمة»

وتكرار هذه المطالب والشعارات، وتلقينها، في أكثر حالات الروح خلوصاً، من الوجد والانفعال والحماس الذي يظهر في جماعة ما، أو في خلوص وإخلاص طاهر في خلوة الانفراد، وفي

اللحظات التي تثير التأمل للطبيعة و«التقويم»[١]، والتي تحدث للإنسان الذي يقوم بالدعاء، تهيىء أفضل الظروف الداخلية والخارجية من أجل المحافظة على هذه المعاني السامية والمثاليات العظيمة لجماعة خاصة وطرحها دائماً. كما تهيىء التأثير والرسوخ من أعماق الوجدان والإحساس، وتخليص الروح من أنواع الضعف والوساوس المنحطة للحياة اليومية والسمو بها وتوسعتها من عبادة الذات إلى الاهتمام بالآخرين.

لكن ما يثير الأسف، أنه في كتب الأدعية التي راجت اليوم ـ وجعلت سوق القرآن كاسداً ـ ومن نمط تفكير جماعة هي اليوم أهل الدعاء والتوسل وأسلوبها، أنهم يخصصون كل الساعات التي فرغوا فيها من مشاغلهم اليومية وأعمالهم وتجارتهم للدعاء، وكان ينبغي أن يخصصوها لواجبهم الإسلامي. إنهم يقومون بقراءة دعاء من الأدعية التي طبعوها في كتب الأدعية، دون أن يفهموا معاني العبارات التي يتلفظون بها ولا الأشياء التي يطلبونها من الله بإلحاح وبكاء، بل إنهم في الأصل لا يحسون بمفهوم الكلمات التي يتوجهون بها إلى الله!!!

أجل، لقد استنبط المفكر عندنا معنى الدعاء من هذه النماذج المنحرفة وأخذ يهاجمه، ومن حقه أن يهاجمه، لكن ما يعتبرونه دعاءاً إسلامياً ليس صحيحاً، ومن أجل معرفة دعاء الإسلام، ينبغي

(١) الطبيعة : الفجر والمغرب ومنتصف الليل ـ التقويم: الجمعة وشهر رمضان والأعياد (وهي كلها في الإسلام أعياد فكرية إنسانية وأخلاقية. . وأيام تاريخية تثير ذكريات حوادث عظيمة وشخصيات عظيمة تثير إلهام الداعي وعواطفه وتمهد روحه وفكره.

الرجوع إلى رسول الإسلام وإلى عليّ والحسين وفاطمة وزينب وإلى ربائب الإسلام الخُلّص. . أمثال أبي ذر وعمار. . كيف كانوا يدعون وماذا كانوا يطلبون؟! وهل كان هؤلاء أفضل فهماً لمعنى الدعاء أو هؤلاء الداعون المحترفون الذين بيننا؟! وهل كان الدعاء في حياتهم عاملاً لمحو المسؤوليات الاجتماعية والفرار من أداء الواجب؟! هل كانوا مثل هؤلاء «الكتّاب المتلاعبين بالأدعية» المتظاهرين بالتدين يقومون بالدعاء فحسب لكسب ثواب معادل لثواب الشهادة والجدارة بالجنة وجلب رضا الله سبحانه وتعالى؟!

أخي المفكر. . **أختي المفكرة**. . هل ينبغي عليك كباحث علمي أن تستند إلى دعاء أولئك من أجل الحكم على الدعاء الإسلامي. . أو تستند إلى قراءة الأوراد عن قرّاء الأوراد هؤلاء؟! وأي نموذج من هذين النموذجين يمكن الاطمئنان إليه والوثوق به؟!

والرسول ﷺ في الحرب ـ شأنه تماماً شأن قائد أعلى للقوات المسلحة ـ، كأنه كان يرى أن النصر في الحرب مرهون فحسب بالعوامل المادية في مقابل أحدث الأسلحة ـ والنظام والتكتيك والعمليات والاستراتيجية والمعنويات المرتفعة والخدع الحربية والانضباط العسكري والمبادرة في احتلال النقاط الاستراتيجية واتخاذ الجبهات الصحيحة والسيطرة على صفوف الأعداء أو منازلهم والحصول على آبار المياه. . ثم خطوط قوية خلف الجبهة وتنبؤات بالهزات الاجتماعية والتموين بل ودراسة مشكلة التمريض وعلاج جرحى الحرب. .

وبعد أن قام باتخاذ كل هذه الاستعدادات بدقة ويقظة وكل قوة وما أتيح من إمكانات، ووقف في مواجهة العدو في هيئة الحرب، حينذاك وقف ﷺ يدعو.. لا ليقول: «إلهي انصر هذه الشرذمة من المسلمين الأشقياء والكسالى، منعدمي الكفاية الجهلة الأنانيين الذين اعتادوا على المذلة، على ذلك العدو المحترم المقتدر المسلح اليقظ، المتحد المجهز بالدعم والتكتيك، بلطفك وكرمك وإحسانك.. واحفظنا من شر الكفار نحن الذين نعرف أن نبث الشر بيننا وبين أنفسنا.. وكل من يريد أن يخطو خطوة واحدة من أجل يقظتنا وحركتنا ونجاتنا يحطمون قدمه، وأي نداء يرتفع نخنقه ونقضي عليه قبل أن يصل العدو.. بحق نحر طفل الحسين ذي الستة شهور والذي أصيب بسهم وشرف علي الأكبر!!».

لا.. رسول الإسلام في موقعة أحد، بعد كل هذه الاستعدادات والمشورة مع الجنود، وأخذ الآراء وتحمل الآلام والمتاعب وأنواع اليقظة والامدادات العسكرية.. يقف، ويخاطب جبل أُحد الذي كان قد اتخذ معسكره في سفحه قائلاً:

«هذا جبل من جبال الجنة، نحبه ويحبنا، إلهي اجعله شاهداً لنا لا علينا[١]. وعليّ بعد الاستعداد الحربي الكامل يتجه إلى الله

---

(١) ومما يثير الدهشة أنه في نفس هذه الموقعة بالرغم من أن الرسول هو القائد، والمهاجرين والأنصار هم الجنود وحمزة بطل الميدان، وعلياً حامل اللواء، والرسول نفسه دعا من أجل النصر.. يهزم المسلمون؛ لأن جماعة رماة السهام الذين كانوا يحرسون مدخل الوادي من فوق تل استراتيجي لم ينفذوا أمراً عسكرياً صغيراً.. لقد كان هذا درساً أكثر تعليماً لنا من كل الانتصارات، لكن تكاتف الجهل والتعرض لم يتركونا نعيه.. لم يسمحوا لنا!!

تعالى وهو أمام جيشه: «إلهي إذا نصرتنا عليهم فابعدنا عن الظلم والعدوان، وإن نصرتهم علينا هبنا الشهادة». والحسين الذي جاء إلى ساحة الشهادة مع كل أعزائه وكل آله في سبيل الحرية والعدالة وإحقاق الحق، وفي آخر اللحظات العظيمة التي ضحى فيها بكل آله وكل شيء، ينثر غرفة من دمه نحو السماء، وبكل الإيمان والضراعة والالتماس يسأل الله سبحانه وتعالى أن يقبل منه كل الجهاد الذي قام به في سبيل القيام بالمسؤولية.

أختي، أخي المفكر:

أليس هذا الدعاء هو سوط للأرواح الضعيفة النائمة اليائسة وغذاء للقلب ودعوة إلى الحياة وحركة وتربية وفكر ونظام وجعل الإحساس رقيقاً؟! وحقيقة أهي أدعية الإسلام التي تتميز بكل هذه السمات أو تلك الأوراد الرائجة التي تقول: كل من يقرأ هذه العبارات عدة مرات يعطيه الله ثواب شهيد من شهداء بدر؟!

أُريد أن أقول:

أيتها الأخت، أيها الأخ..

إن القضاء والقدر كما يفهمه أبوك وأمك والوجوه الدينية المحترمة في بيئتك، وكما فهمته أنت منهم، ليس هو القضاء والقدر في الإسلام، ليس هذا فحسب بل هو مضاد لكل أحكام القرآن والمسؤوليات والواجبات ويقضي على مبدأ النبوة والوحي ودعوة الدين..

فلو كان الأمر أن كل ما يحدث، وأن كل إنسان فيما يفعله وبالشكل الذي يفعله محدد سلفاً وهو مجبر عليه، وإن إرادة الإنسان لا تتدخل في مصيره.. فلماذا جاء الأنبياء إذن؟! وماذا تعني هداية الخلق؟! وماذا يعني الوجوب وعدم الوجوب؟! إن هذا «الجبر الإلهي» على خلاف صفة الإلهية وهو هدية من الزرادشتية[١] ومن هنا يقول رسول الإسلام: «القدرية مجوس هذه الأمة»!! وفيما بعد عندما راج التصوف الهندي من الشرق، والتفلسف اليوناني من الغرب وهبّا لنصرة الخلافة» خرج هذا الفكر المضاد للإنسانية والإسلام..

وكوثيقة وسند ينبغي أن يكون القرآن على الأقل هو معيار بحثك ﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ﴾[٢]. وحتى في القيامة، لا يكون مصير كل إنسان مصداقاً لما كتب عليه من قبل وجبراً خارج إرادته، والقرآن الذي هو بالنسبة لباحث علماني أيضاً ـ من وجهة نظر المعرفة الحقيقية للعقائد الإسلامية ـ سندٌ أكثر احتراماً من «أقاويل» المدعين الرسميين للعلوم الدينية الذين حشوا أذهانهم بالفلسفة أو التصوف أو الأساطير الإسرائيلية وغير الإسرائيلية التي اتخذت طريقها إلى كتبنا الدينية ـ يخاطب جميع الناس بشكل شديد الوضوح، وحازم يفهمه كل شخص، مبيناً أن يوم هو يوم القيامة.. ماذا يكون إذن.

---

(١) الزرادشتية: نسبة إلى زرادشت (توفي نحو ٥٨٣ ق.م) نبي الفرس الأقدمين ومصلح ديانتهم الأولى. من أتباعه الأخمينيون والساسانيون. (المصحح).

(٢) سورة المدثر، الآية: ٣٨.

﴿يَوْمَ يَنظُرُ ٱلْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾[١].

ودائماً ما يكرر القرآن أن كل قوم، وكل مجتمع، كان في التاريخ ثم لحقه الفناء، إنما حدث له ذلك لأنه ظلم نفسه.. بل إن خلافاً للمادية الجدلية، وحتمية التاريخ، وفلسفة الماركسية التي تفسر تغير المجتمعات وتطورها على أساس عوامل مادية وغير إنسانية وإنتاجية بضرورة التناقض الموجود في البيئة الحتمية، وفي النهاية طبقاً للقانون المادي للحركة الجبرية للتاريخ التي لا تعتبر فكر الإنسان وإرادته دخلا في تغيّر مصيره الاجتماعي، بل يحللها على أساس أنها نتيجة لعلل خارجة من فكر الإنسان واختياره. فإن القرآن يعتبر كل تغيير في النظام الفكري أو الاجتماعي للناس نتيجة لتغيير خطأ الفكر والإحساس والروح الاجتماعية عند الناس.. ويعلن نتيجة لذلك أن البشر مسؤولون عن قدرهم التاريخي ومصيرهم الاجتماعي ووضع الحياة والنظام الحاكم في مجتمعهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾[٢].

وأساساً، بدلاً من أن نقوم نحن أنفسنا بالتفلسف وأن نستمع إلى تفلسف هذا وذاك ومعارفه، ثم نقوم بالتظاهر بالعلم والتفيهق والأبحاث الميتافيزيقية حول القضاء والقدر ونتائجهما، علينا على العكس أن نقوم بتحليلات فكرية وانتقادات تقدمية أكثر بساطة وأكثر وضوحاً وأكثر إقناعاً عن نمط الفكر وأسلوب الحياة ونوع العمل

---

(١) سورة النبأ، الآية: ٤٠.

(٢) سورة الرعد، الآية: ١١.

والنضال عند الشخصيات النموذجية الإسلامية الأولى، أولئك الذين كانوا يفهمون بلا شك معنى القضاء والقدر أفضل من علماء المسلمين وفلاسفتهم وعارفيهم وعوامهم . . متى كانت هذه القضية تمنعهم عن النضال والجهاد والإرادة والمسؤولية والعمل لتغيير مصير المجتمع ونظام الحياة، واختيار أسلوب التفكير وأسلوب الحياة عندهم وأخلاقهم؟! وكيف كانوا يفهمون من القضاء والقدر، بمعناه الإسلامي، معنى «الجبر الميتافيزيقي»؟! لقد كان القضاء والقدر بمعناه الإسلامي ـ لا بمعناه عند المسلمين ـ عامل حركة وتقدم وقبول التضحية والمسؤولية ومواجهة خطر الموت في سبيل الهدف، والدعوة إلى النضال ضد الانحطاط والفساد والظلم. أما «أن كل ما يحدث كان يجب أن يحدث، والفقير والذليل قد جعله الله فقيراً وذليلاً، والغني والعزيز خلقه غنياً وعزيزاً، بمعنى أنه لم يكن لنا أي دور في هذا المصير، ولما كان كل أمر قد حدد سلفاً، فإن كل عمل من أجل تغيير الوضع لا طائل من ورائه»، قد صار تفسيراً للقضاء والقدر منذ أن ضاع الإسلام وبقي المسلمون، وروّج هذا التفسير عامل الانحطاط والاستسلام للوضع الراهن، وكل من هم على علم بتاريخ الإسلام يعلمون أن هذا التفسير وهذا المعنى قد اختلقه لأول مرة بنو أمية والعلماء المنتمون إليهم. . وبثوه في أذهان الناس وروجوا له . . وواضح لماذا فعلوا هذا!!

إن فكرة الجبر الإلهي من اختراعهم ثم أعطاها الفلاسفة والصوفية فيما بعد مذاقاً، وجعلوا منها مدرسة علمية وفلسفية

إسلامية. وإلاّ فإن القرآن لم يقف عند الحديث عن المسؤولية والإرادة الإنسانية فحسب، بل ويعلن أنه حتى الأعضاء في جسد كل فرد صاحبة مسؤولية بشكل محدد، فالعين والأذن والقلب كلها مسؤولة عن «الرؤية» و«السمع» والفهم والإحساس وإبداء الرأي. ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾[١] ويطرح سارتر نظرية عن العلاقة بين الوجودية والإنسانية في مقال له تحت عنوان «الوجودية إنسانية» هي من الناحية الفكرية أعمق مبدأ في الآيديولوجيات المعاصرة، ومن الناحية الأخلاقية أكثرها تقدمية، ومن الناحية الإنسانية أكثر المبادىء بنائية وإيجابية. وفي نظري أن تجلي وجودية سارتر الوحيد كامن فيها، وأن فكره في أوج ازدهاره وعروجه الفلسفي، وأنها أعطيت الأخلاق كواقع لما بعد الذات وحقيقة ما وراء العقل ونظام من القيم واقع فيما وراء المنفعة، وهي البنية التحتية للروحانية في حياة الإنسان، وروح التكامل الاجتماعي والوعي والواقعية الجديدة، إما أنها رفضتها وإما أنها لم تطرقها وبقيت عاجزة عن تبريرها ـ أعطتها عمقاً واتساعاً عظيمين[٢] يقول:

---

(١) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

(٢) لأن أساس «الأخلاق» القائمة على العقيدة هي التي تستطيع أن تفسر «الإيثار» وتحث الفرد عليه، والإيثار يعني أن تفضل على نفسك آخَرَ أو آخرين أو التضحية بما تقت إليه أو ما تكون في حاجة إليه من أجل أن يكون الغير مثل الأب والأم أو الإبن أو الأخت أو الأخ أو الزوجة أو الزميل أو الصديق أو الشريك في الفكر أو جماعة أو طبقة أو مجتمع أو أمة أو جناح مشارك في الألم وفي المصير وفي العقيدة.. وفي النهاية النوع أي البشر)، التضحية أو اختيار الغير بداية من الانتفاع أو الثروة والمرتب والمنصب والسلطة والإمكانات والاحتمالات والأرضيات المساعدة والوقت والطاقة والراحة والمتعة ومتع الحياة إلى التضحية بالروح وما هو أثمن من الروح؛ أي

لا يوجد ضابط عيني مطلق للخير والشر ـ كأسس للأخلاق ـ إلاً

بالحيثية والشخصية والشعبية، وبكلمة واحدة: الكرامة، وهي أصعب من الروح لأن محبة الإنسان لذاته أقوى فيه من حفظه لذاته، وكثيراً ما حدث أن محبة الإنسان لذاته والبحث له عن اسم وسمعة نقلت الأبطال ببساطة إلى فم الموت وهذا ما يعنيه: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الجاه. والإنسان الذي يكون مشغولاً في بحبوحة التصادمات الاجتماعية والتكتلات الفكرية والنظرية والعقائدية والمذهبية والسياسية وإبداء العواطف والأحاسيس وتصادمها وأنواع التعصب والعقائد لمجتمع ما وفي بيئة خاصة.. وهو مشتبك في هذه الجهات المختلفة، ويخضع في نفس الوقت لتأثير سطوح القضايا وظواهر الكلام والادعاءات والشعارات، ويدري ما وراء هذه المظاهر والحجب والنقب من حقائق وعقد خفية، ولديه القدرة الفكرية والأساس العلمي للتحليل المنطقي والنفسي والاجتماعي والتاريخي، مثل هذا الإنسان ينتبه بوضوح إلى أنه وراء كل تكتل وتأييد ورأي ونقد واعتراض ومخالفة وموافقة، بشكل أو بآخر طوعاً أو كرهاً.. توجد الرغبة في الذات وحب الذات في الموضوع وأن الدين والإيمان والحقيقة والعلم ومصالح الناس والمقدسات والحق والباطل في الغالب دريئات جميلة احتوتها، أو أنها أنواع من طلب الحقيقة مختلطة بنسب مختلفة من حب الذات. وأحياناً يكون مجرد «وجود مؤسسة ما أو شخص ما أو فكر ما في حد ذاته جرماً.. لأنها تحقر لوجودها في حد ذاته، ودون أن تقصد، الموجودات الضعيفة وتجلي للعيان مناقصها وعيوبها، وكل كمال ونجاح يحيي النقص والضعف فيها.. فتخرجها عقيدة الحسد وتغذيها دائماً.. وبشكل لا إرادي تخلق الروح في حد ذاتها الحقد والعداوة بالنسبة لمن يكون سبباً في تعبها وألمها ويدفعها إلى المخاصمة والهجوم، وتسقط العيوب والتركيز الشديد على نقاط الضعف فيه وإن لم توجد فالاختلاق والاتهام والتلفيق والاتهام بالفسق مبررة، هذا كله لخدمة الدين أو العلم أو الناس، وباسم التدين والتقوى الحقيقية والتنوير والتقدمية وغيرها، وهذا خداع يجعل العقل الباطن لمحب ذاته جريحاً، بل ويخدع المرء نفسه، وكون القرآن يختتم بالمعوذتين وكون إحدى السورتين تختتم بالاستعاذة بالله «من شر حاسد إذا حسد» ليس من قبيل المصادفة. وهناك نقطتان عميقتان مدهشتان علميتان وردتا في نفس هذه السورة أولها أن الحسد شر من الشرور التي يجب أن يستعاذ منها بالله منفصلة وعلى حدة وبشكل مستقل واستثنائي وخاص يجعل منها شراً بارزاً وظاهراً من بين الشرور الموجودة في عالم الوجود.

حسن النية بمعنى أن الفرد يستطيع أن يختار ما يريده، لكن في

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾. سورة الفلق: الآيات: ١ ـ ٥.

والنقطة الثانية وهي أكثر عمقاً وتدل على أن القرآن هو دائماً يتحدث عن الحقائق.. ماذا يعني هذا؟ يعني أننا نرى أن أيدي العدو الخفية تستعين دائماً بالصديق من أجل منع عوامل اليقظة والحركة، أو تشويهها والقضاء عليها، وتقضي على الأفراد المُتعبين المتمردين الغرباء عنهم بأيدي أنفسهم، لأنها لو قضت عليهم علناً، تصبح أكثر أساساً للحركة واليقظة، ولو أنهم كانوا بألسنتهم هم أنفسهم أو ألسنة عملائهم المعروفين والملتحقين بهم بتلويثهم وتشويههم لاشتدوا قوة..ولاشتدت شعبيتهم، والسبيل الأفضل أن يقوموا بشلهم عن أيدي أولئك الذين يبدون لعيون الناس كمهتمين وبلا غرض وبألسنتهم.. لكن كيف يشل الصديق على يدي الصديق أو على لسانه؟! حب الذات والحسد! فحسب.. هما العاملان اللذين يجعلان الأصدقاء المشاركين في الفكر أداة دون أن يشعروا، ومكلفين بلا أجر وبلا مقابل ودون وعي.. لمصلحة العدو ضد الصديق! وبينما كان السيد جمال الدين الأفغاني مشتبكاً في الدول الإسلامية مع الاستبداد ومشتبكاً في الدول الغربية مع الاستعمار، ويتقدم على كلتي الجبهتين، وبينما كان يدلل في عالم الفكر والعلم وفي الغرب على أن الإسلام ـ خلافاً للمسيحية ـ يمنح القوة للعلم والحضارة، ولا تستطيع المسيحية أن تقمع قوته العلمية ونبوغه الفكري، ولا الاستعمار الخارجي أو الاستعمار الداخلي يملكان تلك القوة التي يمكن أن تقف له موقف الند وتستطيع بلا خطر أن تخلفه حقاً.. طعنوه بالخنجر في ظهره على أيدي أشباه رجال الدين ومتديني الظاهر أصحاب النفوذ بين العوام، ولا ارتباط لهم بجهة ما، كما كانوا أيضاً مخالفين للفساد والاستبداد والاستعمار بين المسلمين والمؤيدين لمثل السيد جمال الدين وإيمانه فهاجموه بسيل من التهم والافتراء والتفسيق والاستهانة والتحقير.. بحيث تركوه وحيداً وجعلوه موضع ريبة وشك أمام الجماهير المسلمة.. ونتيجة لذلك فشل.. وعندما بقي وحيداً بين الناس دون معنى أو ظهير قضوا عليه بسهولة!!! وأشباه المتدينين هؤلاء قاموا في أنحاء التكايا والمساجد ومجالس قراءة الروضة والنواح والفتيا ببث الشائعات على أنه متصل بالأجانب وسني وبهائي وليس من السادات آل البيت ولم يختتن!!! هذه التهم نابعة

لحظة اختيار ما، لو أن إحساسه بأنه يرغب ويحب لو اختار الناس كلهم هذا الاختيار بمثل هذا الاختيار خير، وإذا أحس أنه يريد أن يكون هو وحده فحسب الذي يقوم بمثل هذا العمل ولا يمكن أن يقبله، حتى أن يقلده إنسان آخر فهو شر، فعلى سبيل المثال القصاب الذي يبيع للمشتري لحم الماعز بدلاً من لحم الحملان، لا يحب أن يفعل قصاب آخر مثل هذا الفعل، لكنه عندما يبيع كيلو غرام اللحم أقل بريال واحد من التسعيرة التي حددتها البلدية.. ويبيع لحماً جيداً ويقنع بالحد القليل من الكسب يحب أن يقوم كل القصابين بمثل هذا الفعل، وفي هذه الحالة لعله بهذا الاختيار يضع قاعدة عامة ينبغي أن يتبعها الجميع.

ومن هنا فكل فرد، كل إنسان يختار أمراً ما كأنه به يضع قاعدة عامة لكل البشرية، ومن هنا يظهر في الوجودية ما يسمى بالقلق، لأن كل فرد من الممكن أن يكون غير مقيد في أي عمل

من حسد رجال الدين، ضيقي الأفق، مرضى القلب، الذين أحسوا بالغيرة وكانوا دون إحساس يشلون سيد جمال لصالح الاستعمار، كان الأعداء المفترون يدبرون المؤامرات، ويجعلون الجماعات والطوائف مخدوعين مطلسمين.. و«يربطونهم»، ولم يكن الناس على وعي بتعاويذهم، كانوا يثيرون الأصدقاء حسداً وحباً للذات، وتنفيثاً للعقد الشخصية، وأخذوا في جعل الشر يقف على قدميه.. وهذا أصل من الأصول إن الأصدقاء الذين يحسون بالغيرة والحسد دائماً يصبحون أداة في أيدي الأعداء المستترين و«المنفذين الهواة لرغبات الظلمة» وتأتي آية ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ في إثر الآية الكريمة: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ تماماً كدليل على أن ﴿ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِي ٱلْعُقَدِ﴾ هم نفس الأعداء الذين يتآمرون في الخفاء.

انظر تفسير نوين لوالدي الأستاذ محمد تقي شريعتي.

(١) يذكر أيضاً كحديث نبوي «انظر الجامع الصغير ٢/ ص٩٥». المترجم.

به، لكن من يقوم بقيادة جماعة ما، يكون في كل خطوة فزعاً وقلقاً حول ما إذا كان اختياره هذا أفضل اختيار، وبهذا التغيير لما كان اختيار كل إنسان لخير من أجل كل البشرية يختار مثلاً ونموذجاً ونمطاً ينبغي أن يعمل جميع الناس على أساسه، إذن فكل فرد في كل عمل يقوم به يحس في نفسه بالمسؤولية عن كل البشرية، ومن هنا فكأن كل فرد مرشد لجميع الناس ومقتدى لهم وعليه مسؤولية قيادة الناس معهم وإرشادهم. .

أليس كل هذا المبحث يعني ويفسر تفسيراً دقيقاً هذا القول البسيط والعميق الذي قاله علي[1] «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»!!

أُريد أن أقول:

أختي! أخي!

إن التقوى والزهد والقناعة والصبر والتوكل. . وكثير من هذه المصطلحات، تماماً وبنفس القدر التي هي فيه اليوم مسببة للانحطاط، وتبدو مناقضة للشخصية الإنسانية والنضج والقدرة والتمتع بالحياة وتقدمها واستقلال الروح والإرادة الإنسانية وتشل الأذهان وتلوث الأحاسيس بالضعف والفقر والألم والاستسلام للشقاء والتعوّد على العجز والضعف، فإنها في الثقافة الإسلامية الحقيقية تعطي معنى تقدمياً ومنطقيّاً وإنسانياً. . وهذه الفجوة

(١) تفسير هذا القول للإمام علي عليه السلام سيرد بالتفصيل في «الإنتظار مذهب الاعتراض»

العجيبة، والتي لا تصدق بين المعاني التي اصطنعوها اليوم لهذه المصطلحات وروحها ومفاهيمها الأولى كما كان القرآن والرسول يفسرانها، وكما كان المجاهدون وعلماء الإسلام الأوائل يفهمونها، نفس الفجوة بين انحطاطنا وجهلنا وسموهم ووعيهم، وفي الحقيقة فإن هذين الوجهين المضادين لكل واحدة من هذه الكلمات ـ والتي تحمل كل منها حملاً ثقيلاً من العقيدة الأصولية ـ علامة على التضاد والتناقض الذي ابتلى به الإسلام نفسه، كالتناقض والتضاد بين الإسلام الموجود والإسلام الذي كان.

ومما يثير الدهشة أن العوامل الخفيّة الذكيّة . . أي نفس الخناسين الموسوسين الذين يوسوسون في صدور الناس في العلن والسر . . و«النفاثات في العقد» الذين يعقدون العقد بسحرهم الأسود وينفثون فيها بألفاظهم الساحرة، هم الذين يمسخون المعاني ويغيّرون العقائد ويبدلون الإيمان وهو روح الحياة إلى مادة الموت ويلبسون «فرو» الإسلام الجذاب الجميل مقلوباً ويجعلونه قبيحاً منفراً مخيفاً[١].

نعم، هؤلاء الخناسون الموسوسون والنفاثون السحرة، كانت المعجزة السوداء التي قاموا بها في الإسلام هي ببساطة ما قاموا به في الأديان الأخرى والثقافات الأخرى، فالعوامل المتحركة والبناءة والتي تؤدي إلى اليقظة والتقدمية جعلوها بالتدريج متروكة

---

(١) تفسير هذا القول للإمام علي عليه السلام سيرد بالتفصيل في «الإنتظار مذهب الاعتراض» رسالة ضمن كتاب الحسين وارث آدم (المترجم).

ومجهولة، وأشاعوا العناصر المخدرة والتي لا خطر في دينهم وأدبهم وثقافتهم وروجوها وقودوها حتى تغسل بها كل روح المجتمع وعقله، كلهم في الإسلام، خاصة في التشيع اتبعوا أسلوباً آخر، فعلى سبيل المثال نعلم أنه كما يوجد في الأسس العقائدية عند الشيعة العدل والإمامة، يوجد أيضاً التوسل والشفاعة والعبادة والتقوى وتزكية النفس والتوبة والتقية، وهذه الأُسس في الغالب ذات جانب فردي وروحي وأخلاقي، وعلاوة على ذلك يمكن تحريفها بسهولة أكثر، بحيث تحول بهذه الوسيلة بين الناس وبين القضايا الجادة في الحياة الاجتماعية، أو النهوض بالمسؤوليات الجماعية والتفكير في عوامل الشقاء العام، والتناقضات وألوان التفرقة وعللها، وإسكاتهم باسم التقية والتقليد، وجعلهم عاكفين على أنفسهم من منكفئين عليها باسم العبادة والتزكية!!

وهناك في تاريخ الشيعة على سبيل المثال ظواهر مختلفة متعلقة بظروف خاصة ومناسبة للأوضاع والأحوال الاجتماعية في عصرها، وكانت ذات تعبئة وتكتيك وأسلوب عمل مختلف، فالإمام الحسن عليه السلام على سبيل المثال يسالم، ويثور الإمام الحسين عليه السلام، ويقوم الإمام السجاد عليه السلام بالعبادة والدعاء، ثم يقوم الإمام الصادق عليه السلام بالتدريس والعلم، ويقضي ابنه الإمام موسى بن جعفر عليه السلام حياته في سجون هارون الرشيد المظلمة ويسلم الروح فيها، ويقبل ابنه الإمام الرضا عليه السلام ولاية عهد المأمون ظاهراً، ويزاول الأئمة الآخرون التقية، ويرون أن النضال السياسي والعسكري المعلن مما لا جدوى منه بل إنه مجلبة

للضرروالأذى، على كل حال اختار كل واحد منهم شكلاً معيناً للنضال بما تسمح به ظروف عصره، ومن هنا فبالنسبة للخبثاء المتلاعبين بالأفكار وصنّاع معتقدات المجتمع وعواطفه، كان من الطبيعي وأكثر بساطة أن يركزوا على «التقية والعبادة» على سبيل المثال بدلاً من «العدالة والإمامة» ويروجونها في الأذهان، أو يطرحون مثلاً «سلام الحسن» بدلاً من «ثورة الحسين»، ويقيمون كل سنة الاحتفال بذكراه، ويتحدثون عنه، وبالتركيز الشديد المستمر والتلقين والتكرار الدائم يحرفون هذه الحادثة، ويستنتجون من مفهومها الحقيقي البسيط روح الاستسلام للعدو ومهانة الظلم وقبوله، وتحمل الزور وعبث النضال وكون التسليم منطقياً وشرعياً، ويقومون بالدعاية لهذه المعاني ويفسرون الاستسلام والتسليم والمهانة ويؤولونها كواجب ديني وتكليف شرعي.

لكنهم لم يفعلوا هكذا، وبدلاً من أن يعلنوا رسمياً أن الأصول الخاصة للتشيع هي التقية والتقليد، جعلوها العدالة والإمامة كما كانت. وبدلاً من أن يلغوا التركيز في تاريخ الشيعة على ثورة الحسين ويركزوا على صلح الحسن، جعلوا التاريخ كله محصوراً بيوم عاشوراء، بل ـ وأكثر من ذي قبل ـ يركزون على العدالة والإمامة وكربلاء أي على الأصول الثلاثة المولدة للنار والبنّاءة للمسؤولية الاجتماعية والسياسية والثورية، وكل نجاحهم الذي لا نظير له كان في نفس حيلتهم هذه الذكية والعميقة التي حولت معاني الينابيع الثلاثة المولدة للنار، ولوثوا من المنبع تلك الينابيع الثلاثة للحياة والحركة والجهاد، وسمموها وغيروا لونها

وطعمها ورائحتها وأثرها، بحيث إنه ليس فحسب العامي غير الواعي، بل والمفكر التقدمي والواعي المتيّم بالعدالة والقيادة والثورة ضد الظلم والاستبداد والارستقراطية، لا يعرف بعد المذهب القائم على هذه الأصول الثلاثة ويعتبره عامل انحطاط وتخدير وذلة!!!

والعمل الآخر الذي ارتكبه أولئك المتلاعبون بالعقائد، والموسوسون في عواطف الناس، هم أنهم جعلوا فكرة القدر التي كانت في الإسلام أكثر اجتماعية، وأكثر بنائية، وأكثر إيقاظاً وتحريكاً وخلقاً للمسؤولية.. جعلوها تماماً وبنفس القدر أكثر انحطاطاً، وأكثر عداءً للمجتمع وأكثر سلبية، وأصابوها أكثر بالشلل، حتى يقوموا بمسخ التاريخ والفكر والإيمان والإسلام أكثر.

وعلى سبيل المثال:

إن فكرة الانتظار من هذا النمط، ففي حوار علمي مع طلاب كلية عبادان في العام الماضي[1] وفي ندوة مستقلة تحت عنوان «الانتظار مذهب الاعتراض» تحدثت في حسينية الإرشاد منذ بضع ليال وقلت: أساساً ـ وعلى العكس تماماً مما يظن المؤمنون والمفكرون على السواء ـ ليس الانتظار فلسفة للتسليم، إنه فلسفة اعتراض، وكل منتظر معترض، على خلاف ما يظنه المؤمنون

(١) نشرت في مجلة «بيام» نشرة اتحاد طلاب عبادان.

الذين يرون أنه بحجة أنه «ينبغي أن يأتي بنفسه ـ أي الإمام الغائب ـ ويصحح الأمور كلها» يعتبرون كل خطوة وكل مسؤولية بلا ثمر أو نتيجة، ويبررون بهذه الوسيلة ضعفهم وفرارهم وعجزهم، ويفسرون «خمولهم» انتظاراً، وخلافاً للنقد الذي يوجهه المفكرون العلمانيون الذين يفهمون فلسفة الانتظار على نفس النسق الذي يفهمه بها الدينيون غير المفكرين.. والانتظار في حد ذاته التزام وعامل يقظة وانتباه وتأهب دائم!!

الانتظار «تأهب» وليس «خمولاً» إن الذي يؤمن أنه على الرغم من القوى المسيطرة على العالم، وعلى الرغم من قوة جبهة الظلم والزور في المجتمع البشري، وعلى الرغم من سلطة الباطل والعدوان وضعف الحق والعدالة وسقوطها في الأسر، من الممكن أن يحدث انفجاراً في أية لحظة ويرتفع نداء الثورة من أعماق ليل الفساد والظلم والانحطاط، ويدعوه «كثوري» حقيقي إلى المشاركة في الجهاد العالمي للحق والعدل ضد الحتمية الظالمة للتاريخ. مثل هذا الشخص يكون منتظراً، ولا يستطيع ـ لا محالة ـ أن يستغرق في النوم ويغفل عن التفكير في العدل والظلم والحق والباطل والهزيمة والنصر، أو أن يكون محايداً لا رأي له في مسيرة التاريخ ومصير الإنسان وسير الحوادث ويجنح إلى التمتع والترفه، ويعتاد على حياة «النوم والطعام والغضب والشهوة» الخاصة، ومصالحه الفردية.

على العكس، هذا الانتظار يدفعه بشدة على تدريب جسده وروحه وفكره وأسلوب حياته، وتربيتها مثل «مشارك ثوري وواعٍ

ومدرب ومستعد ومسلح وخفيف الحركة وحاد الرؤية وفدائي»، مثلما كان الأمر في الماضي على هذا النسق. حتى في عصر الانحطاط، كان الانتظار عاملاً يدفع الكوادر المذهبية الزاهدة العبادة بل وعلماء الدين على أن يقوموا كل أسبوع بعد صلاة الجمعة بمسابقات ركوب الخيل ورمي السهام، وفي هذه المسابقات لم يكن الرهان والمكسب والخسارة تجاز فحسب بل كانت تصبح أمراً يدعو إليه المذهب. . نفس أولئك الذين أصبحت أهميتهم العلمية وأبهتهم الدينية والروحية ـ حتى وإن كانوا خفاف الحركة داخل بيوتهم ـ تحتم عليهم أن يؤخذوا من تحت آباطهم حتى لا يسقطوا من شدة الضعف والنحول عند ركوبهم الحمير، أو أن يتم هذا على ظهر أحد أو على كتفه ـ وهذا الإنسان يسمى المريد أو حامل الفانوس ـ حتى يظهروا أن الرياضة والعبادة لم تترك في «السيد» رمقاً، ولم تبق عنده سلامة مزاج، وأن الاستغراق أصلاً في المعنويات والروحانيات والصعود إلى عالم اللاهوت قد منعهم من الاهتمام بالماديات والجسمانيات و«الصعود» على الحمار في عالم الناس. . وإلى جوار هذا فبالنسبة لشخصية دينية عظيمة وقاهرة، حيثيته وكرامته هي وقار الدين وحيثيته وكرامته، ليس من المستحسن أن يبدي بعض الخفة والرعونة، وأن يلبس حذاءً عادياً ملتصقاً بقدمه، وأن يقفز على مطيته خفيفاً حاذا. . نفس هذه الكوادر. . عندما كان للانتظار معنى كانت تقوم بين المريدين وعوام الناس بالاشتراك في مسابقات سباق الخيل والرماية ويراهنون بالأموال، بل كانوا يشجعون الناس ويعلمونهم. . وكل المنتظرين،

كل الناس من علماء وعامة كانوا على أهبة العمل مسلحين ومدربين على القتال في حالة تأهب جدية وعملية ومجهزة ومعلوم أن مثل هذا المجتمع . لو كان فيه قيادة صحيحة ماذا كانت ستكون وماذا كانت ستفعل!!

فالانتظار هو الإيمان بمبدأ «الظهور والانتفاضة والانتقام والثورة العالمية وسيادة السلام والوحدة البشرية وتحقق مثال العدالة في كل أنحاء الأرض». وهو على خلاف ما يستفاد اليوم من هذه الفكرة ـ عامل سلبية ومرض وضعف ويأس اجتماعي وقنوط سياسي وتشاؤم تاريخي. ونتيجة لهذا فإنه عامل القوة الذي يمنع المؤمن المنتظر من أن يؤمن بخلود الظالم والمزور، ويصبح يائساً أمام ضعف جماعة طلاب الحق والعدالة وهزيمة المتيمين بالسلام والحرية والمساواة الطبقية والإخاء، ويرى أن مدار الكون هو دائماً على هوى المنتصرين الظلمة والنهابين، ولضرر المحرومين المظلومين والجماهير المنهوبة، ولا جدال إما أن يزحف إلى الانزواء ومرارة الفكر والتشاؤم، أو يستسلم للظلم ويسلم للوضع الراهن ـ أو أن يتحول إلى أداة في يده.

إنه يجعله يثق في أن قوى الظلم وأمواج الدنس ـ طبقاً لحتمية التاريخ وهي إرادة الله ـ محكوم عليها بالموت والهزيمة الحتمية، وأن الحق والعدل والوحدة والإخاء والصداقة ليست مجرد آمال تحملها معها البشرية إلى قبرها، بل سوف يراها على نفس هذه الأرض بعيني رأسه، وفي مسيرة هذا التاريخ، وهذا مصداقاً للآية الكريمة ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ فِى ٱلْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ

أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ ٱلْوَارِثِينَ﴾[1] وبحكم قول الإمام: «لو بقي من عمر الدنيا يوم واحد لأطال الله ذلك اليوم لكي تتحقق هذه الأمور».

إن الانتظار نوع من الحتمية التاريخية لصالح انتصار الحقيقة والعدالة والناس، نوع من النظرة التاريخية والمستقبلية والإيمان بمصير الإنسان، ومرور الزمان على أساس رؤية كونية إسلامية خاصة، كما يوجد مثل هذا الإيمان في الحتمية التاريخية في الفلسفة العلمية للاشتراكية على أساس رؤية كونية خاصة بها.. وبقانون الجدلية التاريخي.

وهل هذه العقيدة الكاملة «إن التاريخ بشكل حتمي ـ أرادوا أم لم يريدوا ـ ودون أن يكون طوع إرادة الأفراد أو الجماعات سوف ينتهي بالانتصار الحاسم لطبقة البروليتاريا والزوال الحتمي والجبري للرأسمالية.. قد تركت على أتباعها أثراً سلبياً؟ وهل منعهم إيمانهم بالتاريخ والزمان طبقاً للقانون الحتمي والعلمي لحركة المجتمع وأنه يتقدم نحو الانتصار النهائي لهذه المدرسة الفكرية والانفجار الحتمي لنظام الطبقية الحاكمة على العالم، وفي النهاية الحرية والسيطرة التي لا شك فيها لطبقة المحرومين.. هل منعهم من المسؤولية الاجتماعية والنضال لتغيير الوضع الراهن وإقامة الحياة وفق ما يريدون؟! أو أنه على العكس تماماً دفعهم إلى ذلك؟!

---

(١) يسأل الرسول الأعرابي الذي دخل عليه قائلاً: ماذا فعلت بناقتك.. فيجيب: تركتها

الانتظار على مثال هذه الفلسفة!!

أخي، أختي!

التوكل أيضاً على هذا النسق.

والحج ـ الذي أشرت إليه ـ قائم على أساس عملين أساسيين هما الطواف والسعي.. وهذان العاملان تجديد لذكرى عملية قام بها إبراهيم وهاجر عليهما السلام بأمر الله سبحانه، لقد جاءت هاجر بطفلها الرضيع إلى هذه الأرض المهجورة الغريبة المحرقة القاحلة.. أحضرهما إبراهيم وتركهما في هذا الوادي الذي لا ينمو فيه حتى الشوك والحسك وعاد، وقبلت هاجر بإيمان ويقين واعتماد على لطف الله وأوكلت إليه هذه المسؤولية العجيبة؛ أمٌ غريبة ووحيدة ليس لديها أية إمكانات.. ومعها طفلها في هذا المهد الساكت الصامت المهول، ولكن لأنها تعتبر مسؤوليتها «حقاً وصدقاً» لا تتردد في تنفيذها على الرغم من افتقادها المطلق لكل ظروف الحياة المساعدة والعوامل والإمكانات للبقاء حية... توكل مطلق!!

ومع كل هذا نراها تترك طفلها في هذا الوادي القحل في رعاية الله وتوكلا على إرادته، وفي نفس الوقت، وهي وحيدة بلا ملاذ، تسرع وتسعى على وهاد هذه الجبال ونجادها ربما تجد عين ماء أو عمران تنجو بنفسها وطفلها من العطش.

سعي مطلق!!

وأساس الحج قائم على هذين الأصلين: سبع مرات طواف

حول الكعبة. . والعدد سبعة هو إشارة إلى اللانهائية وانعدام الحصر والعد، أي أن الحركة الأبدية وكل الحياة في مدار محوره الأصلي هو الله سبحانه وتعالى، ومسير الحياة التي تكون المسافة بين المرء وبين الأصل ـ أي الله ـ واحدة في كل نقطة. . وكل خطوة حركة اتجاهها نحو هذا الأصل!!

حياة على نمط حياة هاجر

وبعد الطواف، وعلى الفور، سبع مرات سعي بين الجبلين، هرولة وسعي. . مثل هاجر. . سعي مادي في طلب المادة الأرضية والعثور على المادة سعي هذه الحياة الدنيا، السعي والبحث الدائم. . وأيضاً سبع مرات!!

ومجموع هذين العملين المتناقضين، والحركة المضادة، والميل المضاد، يصنع روحاً ويصنع حياة. . وهذا هو الإسلام لا توكل على طريقة الرهبان وهو عامل ضعف وفقر وذل اجتماعي، ولا سعي كسعي الحيوان وهو عامل الابتلاء بحب المال وعبادة الاستهلاك البروجوازية وانحطاط الإنسان، والنموذج الواضح للجمع بين العمل والسعي والإيمان والتوكل هو عليّ عليه السلام[1]؟

يوصي ولده في معمعة الثقال قائلاً: «تزول الجبال ولا تزل عض على ناجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارمِ

---

(١) يسأل الرسول الأعرابي الذي دخل عليه قائلاً: ماذا فعلت بناقتك. . فيجيب: تركتها طليقة توكلاً على الله تعالى فيقول له: اعقل وتوكل «والبيت المشهور لمولانا جلال الدين» «أعقل قوائم العير على التوكل، مأخوذ من هذا الحديث».

ببصرك أقصى القوم، وغض بصرك، واعلم أن النصر من عند الله سبحانه»[١].

ويمكن لمفكر ملتزم جرّب النضال الاجتماعي في نظام انحطاط وجهل وزور واستعمار واعتناق بورجوازي للمادة، أن يفهم ويحس أكثر ـ حتى من الزاهد والمتدين والعالم والعارف ـ كيف أن التوكل عامل واهب للقوة وواهب للثقة، وضامن لانتصار فرد ما أو جماعة ما في المجتمع، أو انتصار فكر في نضال ما، نضال في سبيل تحقيق هدف تشهد كل العوامل والظروف على استحالة تحقيقه. التوكل هو الذي يدعو فئة ضعيفة أو شعباً متأخراً إلى القيام ضد ظلم القوى العظمى بالرغم من افتقاده للقدرة والإمكانات والظروف السياسية والعصرية والاقتصادية والعسكرية.. ثم تنصره في النهاية.. وهكذا الصبر أيضاً.. ذلك الذي فسروه بالتحمل والتسليم والسكوت والرضا والاستسلام لكل ما يحدث.. هو تماماً على العكس.. هو بمعنى المقاومة ومواصلة الطريق.. وعدم إلقاء أحمال المسؤولية عن الكواهل، وعدم الشعور باليأس والإحباط والضعف والاتصاف بقصر النفس والوهن.. انظروا هذا النص من القرآن ماذا يعني ومن المخاطب به.. ومن أجل أي هدف تستخدم هذه الكلمة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ﴾[٢]، وأكثر

---

(١) النص من كلام الإمام علي عليه السلام لابنه محمد بن الحنفية لما أعطاه الراية يوم الجمل. نهج البلاغة ص٩٨، شرح الشيخ محمد عبده ص.٨ (المصحح).

(٢) سورة آل عمران، الآية: ٢٠٠.

مباشرة وصراحة في هذه الآية:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَـٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ ٱلْـَٔـٰنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّا۟ئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِا۟ئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾(١)(٢).

والقناعة التي تفسر اليوم كعامل من عوامل الفقر وطلب القليل والاستسلام لفلسفة العيش على الكفاف، وترك الباقي لأصحاب الشهوات الكبرى الذين يبتلعون الأراضي بأصحابها ولا يسد لهم جوع. ثم يسخرون بعدها ويطلبون المزيد من الفرائس!!

والشفاعة فلسفة الشؤم التي تربي الذلة وتصنع المتسولين والشحاذين، وتخلق العجزة، هي أساس الأخلاق في مذهب «خمسة أرطال من خبز التفتون» و«نمة ماء قليل» والرؤية الكونية لبشر كل مجال السير لوجودهم هو التأرجح بين «سفرة حساء

---

(١) هذه المقارنة واحد إلى عشرة ثم فيما بعد واحد في مقابل اثنين ليست مجرد مقارنة مجازية أو حماسية، إنها حكم من الأحكام، فإن المسلم كان إذا هرب أمام عشرة يعتبر مجرماً. فنزلت هذه الآية في بدر. ثم لأنها شقت على المسلمين.. خفف الله عنهم لضعفهم وخفف الحكم بحيث يكون مسلماً واحداً أمام عدوين كافرين.
المترجم: وما الرأي في أربعين يهربون أمام كافر واحد إذا وضع العرب في الحسبان، وأكثر من ثلاثمائة يهربون أمام كافر واحد إذا وضع المسلمون في الحسبان؟!!

(٢) سورة الأنفال، الآيتان: ٦٥ ـ ٦٦.

اللحم» و«لحاف المدفأة التقليدية المسماة بالكرسي»!!

لقد تعلمنا هذا النوع من «القناعة والصبر» من حياة الكلاب، وقد نظمها شاعر أجنبي، وترجمها شاعرنا «م. اميد»[1] شعراً فارسياً. . والشعر عبارة عن محادثة بين عدة كلاب منزلية أليفة في ليلة عاصفة وباردة من ليالي الشتاء، وهي فارغة من الدنيا ومن كل ما يجري خارج جدران المنزل الأربعة. . تتحاجى وتتحدث وكل منها يؤيد رأي الآخر أو يرد على أسئلة الآخرين بجواب حماسي يعطي الأمل. .

يقول أحد الكلاب:

إلى جوار مطبخ السيد، هناك

النوم على ذلك التراب المتموج كنشارة الخشب كم هو ممتع ولذيذ

ثم قولهم لك: يا عزيزي. . وسماعهم يخاطبونك قائلين: يا حبيبي!!

ويواصل آخر:

والأكل من فتات الموائد!

ويقول ثالث: وإن لم توجد، فالعظام!

(١) م. أميد: مهدي إخوان ثالث (١٩٢٥ ـ ١٩٩٠) شاعر إيراني معاصر، من المدرسة الحديثة. انظر الشعر الفارسي الحديث دراسة ونماذج للمترجم (الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٢).

فيقول الأول: يا له من عيش مريح ودنيا جميلة؟

ويا له من سيد عزيز وحنون!

ويتذكر كلب آخر:

ـ ولكن سوطه؟! أليس في حد ذاته بلاء؟!

فيواسيه آخر:

ـ اجل لكن ينبغي تحمله.. حقيقة أنه مؤلم إلى حد ما لكن السيد يشفق في النهاية ويسمح ـ إن سكن غضبه ـ أن نتمسَّح برؤوسنا على حذائه وقدمه.

فيحصي جراحنا.. ونعتبر نحن هذا اللطف غنيمة لنا.

فلسفة فراغ الروح وانعدام الحاجة والقناعة والصبر والتحمل بمعنى صبر الإنسان على السوط الشديد والشكر على التراب الناعم، ورحمة الصاحب وشفقته بلطف جدير بالسادة.. والقناعة «بأكل فتات الموائد»!!

لكن القناعة كما كان الإسلام يتحدث عنها، وكما كان عليّ يفهمها، هي نفسها التي يفهمها اليوم عالم اجتماع بمعنى، ويفهمها عالم في علم الإنسان بمعنى، كما يفهمها مفكر ملتزم مناضل بمعنى آخر، وكلهم يفهمون معناها أفضل مما يفهمه كل الزاهدين والقانعين والمعلمين القدماء والرسميين للزهد والأخلاق والتصوف والرهبانية والرياضات البرهمية والمسيحية. فعالم الاجتماع يعلم كيف أن الحضارة البشرية تتقدم اليوم نحو فلسفة «مبدئية الاستهلاك

وأصالته» وأن العلم والتقنية والسياسة بل والعلوم الإنسانية كلها توضع في خدمة «أقصى إنتاج ممكن وأقصى استهلاك ممكن»، وعالم الإنسان هو الذي يرى كيف أن كل تجليات الروح، وتنمية الاستعدادات المختلفة، وبسط أبعاد الوجود، وتفتح أنواع النبوغ، وتنوع الأنماط والشخصيات، وفي النهاية كل أوقات الفراغ والتأمل و«الفكر الذاتي» والفكر الحر والإحساس بالدنيا والحياة ومعنى الوجود الإنساني ومفهومه، كلها تداس في مواجهة الهجوم التصاعدي الذي لا يرحم «لأنواع الاستهلاك» أولاً بأول!! وتُبدي أجهزة الدعاية والفكر والفن المرتبطة بأقطاب الانتاج الرأسمالي كل يوم.. وفي الحياة اليومية.. وفي مسيرة الغرائز المادية.. تُبدي وتخلق «حاجات كاذبة» وتفرضها على العائلات والطبقات والمجتمعات، ومن أجل الحصول عليها تدفع الناس جميعاً إلى سعي وكدح لا ينتهيان، ويرى أن الأحمر والأسود والأبيض والأصفر كلهم قد ألقي بهم في عجلة مكررة تثير الغثيان والعبث وأخذ يديرها: الانتاج من أجل الاستهلاك والاستهلاك من أجل الانتاج، ثم الانتاج من أجل الاستهلاك. والاستهلاك من أجل الانتاج.. وحتى الموت!!

شيء يثير الدوار.. ويبعث على الغثيان.. هذا هو المعنى الحقيقي للقيىء والغثيان عند سارتر.. كل ما مني بمصير سيزيف[1].. الملك الذي حكم عليه من زيوس هذه العقوبة

---

(١) سيزيف: ملك خرافي في الأساطير اليونانية. مؤسس مدينة كورنتس. اشتهر بالمكر والدهاء. حكم عليه في الجحيم بعذاب أبدي (المصحح).

وهي : أن يرفع حجراً ضخماً من سفح جبل على كتفه، وبكل كدح ومشقة يصل إلى قمة الجبل، وعندما يصل إلى هناك، يتدحرج الحجر من فوق ظهره ويسقط في سفح الجبل، فيعود ويحمله على كتفه ويصعد. . ويبلغ به قمة الجبل. ثم يسقط ثانية. . وثالثة. . ورابعة. . إلى الأبد!! ومبدئية الاستهلاك ونظام الحياة بالتقسيط ـ نظام ينقص فيه الإنسان من عمره دائماً. . ينبغي عليه أن يبيع مستقبله من أجل استهلاكاته السابقة. . هذا هو بيع المستقبل، بيع العمر من أجل الحصول على الحاجيات التي أجبرت عليها دون أن يمنحوني القدرة على الشراء، ولأنهم كانوا قد جعلوني محتاجاً وليس لديَّ نقود، فقد أجبروني على أن أبيع سنوات عمري القادمة بيعاً مقدماً. . هذه هي العبودية الجديدة التي تعني حرية العبيد!!

وهكذا فإن على المفكر، وهو إنسان واعٍ ويحس بالمسؤولية تجاه مجتمعه وجماهيره المحرومة، من مواجهة الكارثة والظلم والاستعمار والتخلف والجهل المتفشي بين الناس، والحرب والجريمة في العالم. . عليه أن يقوم بمسؤولياته الإنسانية، لكنهم بتعبير المرحوم جلال آل أحمد يقومون بجعله أليفاً، ويصبون على أم رأسه الاحتياجات الجديدة، والحياة الحديثة الفاخرة «اللوكس» ووسائل الراحة والتنعم والأسلوب الرائج لحياة المجتمع، الاستهلاك المتزايد المستمر، يضعون الحِمل على ظهره، ويجعلونه يسعى من أجل ضمان هذه الاحتياجات المصطنعة المفروضة وفي النهاية يسقطونه في هذه العجلة البلهاء التي تصيبه بالصرع حتى يباع تماماً، ويثقل ويزداد شحماً ولحماً ويلتصق بالأرض وتحت الحمل

الثقيل لهذه الالتزامات الاقتصادية وحياته اليومية الفردية والعائلية، وآلاف من أنواع المحافظة والمصلحية والضعف والذلة التي هي لازمة لحفظ مثل هذه الحياة وإدارتها.. وتطير مسؤولياته الإنسانية ومنطلقاته العقائدية كلها مثل «أحلام الشباب»، وسرعان ما يصبح «رجلاً عاملاً ويكون كل هدفه أن يعمل حتى لا يُمس شيء، ولا يقوم بعمل ما تتغير من جرائه ظروفه العملية والاجتماعية أو تتعرض للخطر؛ لأنه على أساس نفس هذه الظروف كان قد باع مستقبله، وليس لديه الحق أو الجرأة لأن «يخاطر ويتهور».. ينبغي أنه يحتفظ به بأي ثمن وبالاستسلام لأي عار!!

في مثل هذه الأرضية والعصر، وبالنظر إلى مثل هذا المصير الذي يجعل المفكر ضحية له، ومع مثل هذه الرؤية وهذه المعرفة، يمكن أن نعرف كيف أن «القناعة والزهد من القيم العميقة والإنسانية والتحررية.. من زاوية الرؤية هذه!! وخاصة عندما يكون المطروح وهو حياة مفكر ما ومسؤوليته، إنسان ملتزم، أو قائد فكري واجتماعي، أو مجاهد في سبيل العقيدة والناس، لا تبقى القناعة والزهد مجرد فضائل فردية أخلاقية ودينية بل تكون أكثر جدية وأكثر أساسية من ذلك، تكون الضمان الوحيد لانتصاره ولأداء رسالته والشرط اللازم والضروري لحياته، والخلق الوحيد الذي يضمن بقاءه «إنساناً ووفيا» ولمقاومته وصموده وعدم انزلاقه.. وعدم تعرضه للبيع» تكون عامل شجاعة وفدائية واستقبال للخطر في سبيل إيمانه وهدفه.

والإنسان المسؤول في مواجهة المجتمع الملتزم برسالة من

أجل الناس والمجاهد في سبيل عقيدة إنسانية ينبغي أن يقيم حياته الفردية على مبدأين سلبيين حتى تبقى حياته الاجتماعية والعقائدية راسخة على «مبدأ إيجابي»:

الأول: ألا يملك شيئاً.. حتى لا يتحول إلى «محافظ» من أجل أن يحافظ عليه.

الثاني: ألا يكون راغباً في شيء.

وذلك حتى لا ينجرف وينزلق من أجل اكتسابه، أو يبدي ضعفاً بالنسبة له.. فيكون زهده وقناعته ركيزة استقلاله وحريته وشجاعته وصموده وثباته.. وهذا هو معنى النقاء الثوري الذي اصطلح عليه الكتَّاب والمفكرون والمناضلون الاجتماعيون اليوم!! وهذا هو معنى زهد «عليّ»، الزهد الذي قام المخادعون والحمقى الذين يقللون من كل المعاني السامية بحيث تكون في مستوى إدراكهم الضيق الفقير ويحقرونها وينزلون من مستواها ـ بجعله وسيلة لتبرير الفقر وشاهداً لإثبات الفلسفة الحمقاء «فلسفة الزهد من أجل الزهد» و«القناعة من أجل القناعة»، أو بمصطلح برودون[1] وماركس «فقر الفلسفة» و«فلسفة الفقر».. وفي مجال «ذلة الدين وانحطاطه» و«دين الذلة والانحطاط».. وقد قام عليّ نفسه بالفصل بين هذين النوعين من الزهد فهو يصيح بغضب في

---

(١) جوزف بيار برودون (١٨٠٩ ـ ١٨٦٥) فيلسوف اشتراكي فرنسي. اشتهر بنظرياته المناصرة للعمال. من كتبه «فلسفة البؤس»، اهتم بالمسائل الاجتماعية والاقتصادية. (المصحح).

عاصم بن زياد الحارثي الذي كان يزاول الزهد والرياضة الصوفية: «يا عُدَيَّ نفسه لقد استهام بك الخبيث، أما رحمت أهلك وولدك: أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها؟ أنت أهون على الله من ذلك»[١]. . فأجاب وقد كان ضحية لنفس سوء فهم زهد علي ونقائه الثوري. وهو زهد إنسان مسؤول فظنه «زهداً صوفياً» و«رياضات رهبانية»، ودليلاً على مذهب «عبادة الفقر» فقال: «يا أمير المؤمنين هذا أنت في خشونة ملبسك وخشوبة مأكلك. . قال: ويحك إني لست كأنت، إن الله تعالى فرض على أئمة الحق أن يقدروا أنفسهم بضعفة الناس كيلا يتبيغ بالفقير فقره»[٢].

أخي وأختي ومن في جماعتي ومن هو من جيلي.. المفكر!!

كيف أقول؟!

إن ذلك الإله الذي أؤمن به، إله لا يجعل بيته مثل معابد الآخرين وسيلة لنهب البشر. . بحيث نرضيه بإعطاء النذور والإتاوات لممثليه!! إنه إله يجعل من الناس عيالاً له وأسرة له[٣]، هو إله يُسمي بيته بيت الناس[٤]، إله يقوم في المجتمع البشري إلى

---

(١) النص عند شريعتي بتصرف وانظر الأصل هنا من نهج البلاغة نسخة فيض الإسلام ص٦٦٣. المترجم.

(٢) من كلام للإمام عليّ عليه السلام بالبصرة وقد دخل على العلاء بن زياد الحارثي فشكا إليه أخيه عاصم بن زياد. عُدَيّ: تصغير عدو، خشوبة تعني خشونة. ويتبيغ أي يهيج به. نهج البلاغة، شرح الشيخ محمد عبده ص٤٧٠. (المصحح).

(٣) الناس وفي رواية: الخلق عيال الله.

(٤) ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ سورة آل عمران، الآية: ٩٦.

جوار الإنسان. . وفي تعاون وتعاطف معه بالوقوف ضد الظلم والجور والفساد!! إله أعظم أنبيائه هو «نبي السيف» أو على حد تعبير رودنسون «نبي مسلح» إنه يستخدم هذا الوصف مهاجماً، وأنا استخدمه مفاخراً، فلا جدال أن نبينا ليس مثل نبي المسيحية الكاثوليكية الرومانية الذي يدعو إلى المحبة بين الظالم والمظلوم والسيِّد والعبد والمستعمر الروماني والمستعمر الفلسطيني، ويريد بعدة نصائح ـ تصلح كموضوع للإنشاء ـ أن يقف في مواجهة الإمبراطورية الوحشية العسكرية ويخلص الجماهير الذليلة، وبعدها يأتي إثنان من الحرس ويأخذان مخلص الأسرى أسيراً ويحملونه إلى الصليب، ثم تكون رسالته: أيها الشعب الواقع في أسر الاستعمار الروماني أعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله!! لو صفعوك على خدك الأيمن فمن واجبك أن تقدم خدك الأيسر للظالم[١].

لكن رسولنا هو رسول السيف في مواجهة الجريمة والخيانة ورأينا. . ذلك السيف الذي أخذ به بني قريظة جماعة جماعة وألقى برممهم في البئر. . منذ أن وضع ذلك السيف في غمده يقومون بذبحنا جماعة جماعة وإلقائنا في البئر. . هذا هو رسول ديني، هو رسول القوة ورسول العزة.

يقول ول ديورانت: «لا يوجد نبي قط حرض أتباعه على القوة ورغبهم فيها بقدر ما فعل محمد، ولم يوفق نبي قط توفيقه في

---

(١) من قبيل توضيح ما هو واضح. . وكما أسلفت أنني أقصد النبي الذي يدعو إليه المسيحيون الآن وهو من صنع الأقوياء الرومان لتبرير استعباد الجماهير، والاً فإن نظرة المسلمين بالنسبة للمسيح الحقيقي متميزة تماماً.

هذا الأمر» . . هو نبي هذه الحياة الدنيا، نبي حكومة العدل. . نبي العمل والانتاج. . والمنزل الذي يعيش فيه أكثر زهداً من كل منازل الزهاد، وحياته أكثر بساطة من حياة كل العابدين المنزوين المنعزلين ـ وكل حياته في خدمة المجتمع والناس.

وعليّ خليفته على هذا النمط!! وكل أئمة هذا المذهب، هلكوا في النضال ضد الظلم والجور الذي كان الآخرون قد أحدثوه في الدنيا باسم الله وباسم القرآن، وقبل الكفرة وغير المسلمين كان آل بيت الرسول هم الذين يسقطون ضحايا.

كيف أتحدث؟! أية وسيلة لدي ولدى أمثالي أدعو بها لهذه الثورة؟!!

أيتها السيدات، أيها السادة: إنني أرى اليوم أن هذه الجماعة التي أنتمي إليها من الناحية الطبقية، وأخالفها من الناحية الفكرية والعقائدية، عندهم الصحف والمجلات والمترجمون على اختلاف أنواعهم، وعندهم الكتّاب المجيدون، عندهم المسرح، وخلف زجاج العرض أرى كل يوم عدداً من المسرحيات، والسيناريوهات وترجمات الكتب وأنواع النشر ودواوين الشعر والقصص والروايات، ومئات من الوسائل الأخرى من أجل الدعاية ـ كلها في مواجهة الدين بشكل مباشر أو غير مباشر ـ كلها تحت سيطرتهم. . وضعت أمامكم بجمال ظاهر لتكون في متناول أيدي المتعلمين والمفكرين. . بناتكم وأبنائكم، إخوتي وأخواتي. . وببساطة ويسر ووفرة. . لديهم كل شيء بالفعل!!

لكن. . من هذه الجهة، فإن المؤمنين المستريحين الذين لا يشعرون بألم ما، وفي نظرهم أن شيئاً لم يحدث يدعوهم إلى الخوف والحركة، لديهم مئات بل آلاف المنابر والمحاريب، لديهم المساجد والتكايا. . ولديهم وسائل إقامة كل شعائرهم الدينية!! وبينهما جماعة تفكر مثلي بلا وسيلة وبلا ملاذ. . وبلا قاعدة. . ظلوا مشردين. . وإذا قاموا بعد مشقة، وتعب وألف مشكلة واصطدام، بنشر كتاب. . قامت تلك الجماعة بالهجوم قائلة: اليوم؟!! في القرن العشرين؟!! ثانية كتاب ديني؟!! ثانية أبو ذر الغفاري؟!! بينما تقوم هذه الجماعة بالهجوم قائلة: مثلاً. . لماذا لا تضع إلى جوار اسم الرسول حرف ـ ص ـ؟ أين ذلك الشخص الذي لم يكتب إلى جوار اسم الرسول «صلوات» بالحد الكافي حتى نقيم عليه الحد؟!!

إذن فنحن نرى الدينيين والقوة الدينية المنتسبة إلى السوق الوفية للسنن القديمة. . لديهم كل الإمكانات الموروثة والتقليدية من أجل القيام بأعمالهم وشعائرهم والتعبير عن أفكارهم وتلقيناتهم. . وأولئك العلمانيون أتباع «المدارس الجديدة» لديهم أيضاً كل الأفكار والأقلام ووسائل التعبير الحديثة تحت سيطرتهم. . وبينهما. . أخذ أشخاص مثلي. . كحبة قمح. . بين شقي رحى يُسمَّى «مجتمع اليوم» و«عصرنا» يطحنون ويتحولون إلى دقيق ويذهبون إلى الفرن ليتحولوا إلى خبز لسد جوعهم، أو يصرخون ويختنقون، ولا يصل صراخهم وأناتهم إلى مسمع أحد. .

هم «الوحداء» لا وسيلة في يدهم. . ومن أجل هذه الطبقة لا يوجد سقف واحد في هذا المجتمع. . ولو وجد لانقض. . ولا توجد مؤسسة واحدة، وإن وجدت ينبغي أن تلوث، لا ينبغي أن يوجد لسان أو يوجد قلم ولو وجد ينبغي أن يُقطع. . ويُحطم!!

ولو أنك كمسلم، كشيعي، كإنسان مسؤول مؤمن يريد أن يعمل بما يمليه عليه إيمانه، ولو أنكم كأشخاص تعلمون أن الله ليس على هذه الصورة التي فهم الآخرون أنه عليها، وأن الحج ليس بمعناه الذي يجعلونه سخرية ولا يزالون عاكفين عليه يزاولونه، وإذا كنتم مؤمنين أن علياً ليس هو ذلك الصنم، وذلك البطل القوي الذي نحبه ولا نعرفه، بل مظهر منح النجاة والحياة واليقظة والحركة والمسؤولية للإنسان، إذا كنتم تؤمنون أن التشيع ليس من صنع الشعب الإيراني من أجل القضاء على الإسلام بل الحقيقة الصادقة للإسلام نفسه، ولو كنتم مؤمنين بأن التشيع الحقيقي ـ بنفس ذلك المعنى الذي كانوا يفهمونه عليه بالأمس ـ يمكن أن يجيب اليوم الجيل الهارب من الدين، والهارب من المذهب على أساس مطالبه والشعارات التي يحتوي عليها، وإذا كنت تؤمن بأن هذه الشعائر الدينية والمذهبية والعقائدية التي تقام في هذا البلد لا يمكن لها أن تفي بحاجات العصر. . فلن أقول: ضحوا بأرواحكم في هذا السبيل، وأبرزوا فدائية. . وضحوا بحياتكم (ومن هم بشر يستثنون، فهم ليسوا في حاجة إلى هذه الرسالة). . أقول: على الأقل في هذه المدينة طهران التي تضم ثلاثة ملايين، وفي هذا البلد الذي يضم ثلاثين مليوناً. . والذي

يحسب عليه اسم عليّ وعليه اسم التشيع وعليه اسم الحقيقة الصادقة والإسلام والدين. . وكل هذه الأمور موشكة على الضياع من عصرنا ومن جيلنا اليوم وغداً. . أقول: على الأقل من أجل هذا الجيل الذي تحدثت عنه قوموا بعمل ما. . إن هذا الجيل في سبيله إلى الضياع، هذا الجيل بين قاعدتين: العصرية والتقدم، القطبين المجهزين المشكلين للسنة والبدعة، الخرافة والأوربة، الرجعية والانحراف، مقلدي الماضي ومقلدي العصر، عبّاد القديم وعبّاد الغرب، المتعصبين الدينيين والمتعصبين العلمانيين. . بقي بينهما وحيداً دون قاعدة ودون ملاذ. . فلا هو بقي في قوالب القديم الموروث ولا تشكل في القوالب الجديدة المفروضة المستوردة واستراح. . هو في حالة اختيار إيمان، محتاج ومتعطش، ولكنه شريد، هارب من الدين كما هو قائم وكما عرض عليه ويائس منه، ولم يقبل الآيديولوجيات الغربية ولا الدُّرْجَات (الموضات) الفكرية ولا الأنماط الأخلاقية والاجتماعية في الحياة الحديثة ولا الاستعمار الثقافي، وهو باحث عن مدرسة فكرية تمنحه فرصة أن يكون إنساناً، وتمنح مجتمعه الحرية والوعي والعزة، وتهبه إيماناً مستنيراً وسلاحاً عقائدياً في النضال ضد الجهل والذلة والأسر والتخلف والفوارق الطبقية.

ولو تعلمون أن الإسلام الحقيقي يستطيع أن يسد حاجاته هذه، ولو تؤمنون أن التشيع الحقيقي العلوي يمنحه مثل هذا السلاح، فقوموا بعمل من أجله ومن أجل الإسلام ومن أجل التشيع، وشكلوا من أجل قاعدة تعليمية وركيزة دعوة، وتياراً فكرياً

قوياً وجديداً ومؤثراً ومتناسباً مع عصره ومع حاجاته ولغته، إن هذه الأطعمة القديمة، وهذه الكتب المذهبية، وهذا الشكل والدعوة إلى المذهبية لا تجذبه إلى إيمانكم، ولا يستطيع أن يصمد أمام مئات الآيديولوجيات والمدارس الفلسفية والاجتماعية والعلمية المعاصرة التي هجمت عليه من الحضارة الحديثة. . وما هو موجود يشبع فحسب الجيل القديم الوفي للمذهب والسنة. . قوموا بعمل ما من أجل هذا الجيل. . هيئوا من أجله غذاءً فكرياً جديداً، وأخلقوا لغة جديدة لكي تتحدثوا معه وتعرفوه بالاسلام والتشيع والثقافة والتاريخ والإيمان والتوحيد والقرآن ومحمد وعليّ وفاطمة وكربلاء والإمام والعدالة والإمامة والاجتهاد. . ابدأوا في خلق نهضة إسلامية، نهضة ثورية وفكرية، غليان وفوران شيعي وقوي. . انفقوا الميزانيات الدينية والخدمات الدينية والأنشطة الإسلامية في طرح الإسلام الحقيقي في هذا العصر ومن أجل هذا الجيل. . وإلاّ سوف يضيع هذا الجيل، وتضيع الفرصة ولا يصل هذا المذهب وهذا الإيمان إلى غد. . الآن. . الآن. . وبقدر الإمكان. . الآن وأنتم تستطيعون. . قوموا بعمل ما.

والسلام. . .

٤/٦/١٣٥١هـ

٢٦/٨/١٩٧٢م

الفهرس